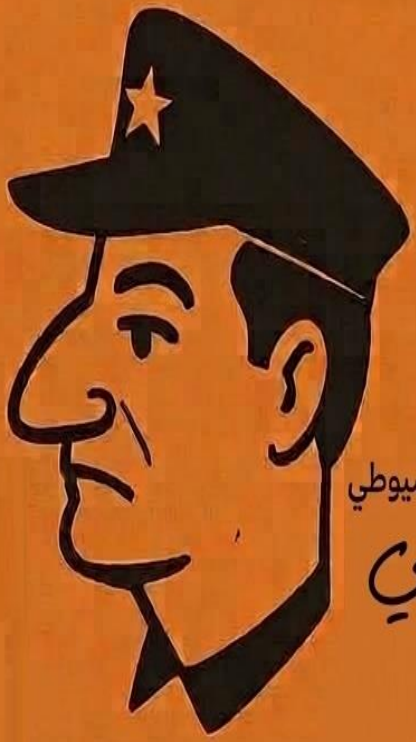
الفاشوش

في حكم اللي ميعرفوش



مش المماتي ولا السيوطي

محمد صبحي

من البابا.. إلى بابا

عقيدة الجهل الواثق والعجز المتبادل

الفاشوش - في حكم اللي ميعرفوش

تأليف: محمد صبحي محمد – المحامي

الطبعة الاولى – ٢٠٢٦

هذا المصنف الادبي، بما يتضمنه من نص وشخصيات واحداث وحبكة وتعبيرات وصياغات وعناصر ابداعية، محمي بموجب احكام قانون حماية حقوق الملكية الفكرية المصري رقم ٨٢ لسنة ٢٠٠٢ وتعديلاته، وبموجب القوانين والاتفاقيات ذات الصلة.

لا يجوز، دون الحصول على اذن كتابي مسبق من المؤلف او من صاحب الحق، اعادة طبع، او نسخ، او نشر، او اعادة نشر، او توزيع، او اتاحة هذا المصنف، كليًا او جزئيًا، باي وسيلة كانت، ورقية، او الكترونية، او صوتية، او رقمية، كما لا يجوز ترجمته او تحويله او اعداد مصنف مشتق منه او استغلاله باي صورة تستلزم ترخيصًا بموجب القانون.

ولا يخل ما سبق باي من الاستخدامات والاستثناءات التي اجازها القانون، بما في ذلك الاقتباس، او التحليل، او التلخيص، او النقد، او المناقشة، او الاعلام، وذلك في الحدود والشروط المقررة قانونًا، مع مراعاة نسبة المصنف الى مؤلفه وذكر المصدر متى كان ذلك واجبًا قانونًا.

واي استخدام للمصنف خارج الحدود التي يجيزها القانون يتطلب الحصول على اذن كتابي مسبق من صاحب الحق.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
محمد صبحي

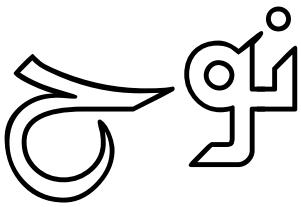
© ٢٠٢٦

الفهرس

اهداء ٥
رسالة شكر ٦
مقدمة ٧
الفصل الاول: يوم في كوكب البابا ١٠
الفصل الثاني: المـــــورجـــــيحـــــــة ٢٣
الفصل الثالث طبيب الفلاسفة ٣٦
الفصل الرابع: اقتصاد الـ ولا حاجة ٥٣
الفصل الخامس: فلوس زي الرز ٦٧
الفصل السادس: يعيش يعيش يعيش ٩٦
الفصل السابع: سينا وسونيا ١٢٠
الفصل الثامن: ملكة الصحراء ١٥٦
الفصل التاسع: الثورة كخ ٢٠٨
الفصل العاشر: احلام ٢٧٨
الفصل الحادي عشر: القصر والقبر ٣٢٦
الفصل الثاني عشر: بابا ٣٨١

اهداء

اليك وحدك





رسالة شكر

الى من ابلغنا يوما باننا "غير مؤهلين للديمقراطية"..

شكرا لأنكم اغلقتم كل ابواب التعلم والتجربة،
وتركتُمونا وحدنا نتخبط في تركة "المرحلة"،

متجاهلين ان الشعوب لا تتعلم السباحة على جفاف،

وان من يقطع الاطراف لا يملك ان يعيرنا عكازا.

مقدمة

صغيرا كلما رأيت حاكما مستبدا او ظالما، اسمع من يردد عبارة موروثة: "ده حكم قراقوش".. وسالتُ كثيرا عن هوية "قراقوش"، فلم اجد اجابة شافية، كان الرجل اختفى خلف لعنته.

حتى طالعت يوما كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش" للأسعد المماتي؛ حيث نسج قصصا خيالية مبالغ فيها لتشويه غريمه السياسي العظيم "بهاء الدين قراقوش".

ونجحت خطة المماتي؛ فلم يشوّه قراقوش فحسب، بل محي تاريخه الحقيقي كله، ولم يبقَ منه سوى خرافات "الفاشوش".

ورغم ان كبار العلماء، كالإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، حاولوا تبرئته في كتابه "الروض الانيق في فضل قراقوش"، الفاشوش في أحكام وحكايات قراقوش" الا ان شيئا لم يستطع مواجهة فاشوش المماتي وسطوته.

من هنا، تعلمتُ ان الكتابة ليست مجرد علاج للماضي، بل هي درعٌ يحمينا من ان نُشوه في كتب التاريخ.

ولأني لست مؤرخا بالمعايير التقليدية، ولا ادعي الادب بالمعايير النخبوية، فقد اردتُ نقل تجربة جيلي، وحفظ جزء من ذاكرتنا بالطريقة الوحيدة المتاحة.

لكنني لم انتهج اسلوب المبالغة الذي لجا اليه المماتي؛ فواقعنا اليوم اسوا واكثر عبثية بكثير من اي مبالغة تخيلية.

ومن هذا المنطلق، تعمدتُ الا أتأنق كأديب، والا ادسّ حكما او مواعظ بين السطور؛ بل تركت التصريحات والواقع الاسود يتحدثان عاريا على السنة ابطال "الفاشوش في حكم اللي ميعرفوش."

وفي هذا العالم، لا تموت الانظمة الاستبدادية بموت طغاتها، بل تُورث الياتها لمن يديرونها بذات العقلية وبأقنعة جديدة.

هذا هو القانون الخفي الذي يحكم "دار الامل" في هذه الرواية؛ مكانٌ وُجِد ليرعى البراءة، فتحول الى مسلخ خلفي للوعي، ومعمل لتفريخ الخوف والطاعة العمياء.

هنا، لا يعد السؤال: "من هو البابا؟"، بل يصبح: "لماذا نحتاج دائما الى بابا؟"

تتناول هذه الرواية، بصيغة ساخرة وموجعة، كيف تتحول المؤسسات التي انشئت لخدمة المستضعفين الى ادوات لسحقهم، وكيف يتقن الحاكم المزيف (عبدون) فن بيع الاوهام والمستقبل، بينما يكتفي النخبويين (مثل سعيد) بالهروب او ترديد عبارة "مفيش فايدة"، وتدفع الجماهير البسيطة (الاطفال) ثمن هذا العبث دما واعمارا.

انها حكاية عن الدائرة المفرغة؛ حيث يرحل "عبدون" مخلّفا وراءه خرابا ومقابر، ليدخل "بابا ابراهيم" ويبدا الحكاية من جديد. حكاية لا تخص دارا وهمية في الصحراء، بل تخص كل مكان مُنِع فيه الحلم، واغلق فيه باب الحرية.

وأخيرا..

ان رأيت ظلك بين سطور هذه الرواية، او سمعتَ صدى تصريحٍ اطلقته يوما على لسان احد ابطالنا..

فتأكد تماما انك المقصود

الفصل الاول:
يوم في كوكب البابا

كانت دار الامل ورعاية البراءة تعيش في عالمها الخاص، عالمٌ يقف عند اللحظة التي قرر فيها البابا ان اي شيء خارج سور هذه الدار كلام فارغ، لكنه يناقض ذلك حين يقول للجميع بحذر:

—"بره كمان خطر وفتنة!".

في الممر الرئيسي، كان الحائط يتزين بساعة نحاسية كبيرة، تقف عقاربها بثبات عند الساعة الرابعة والربع. لا احد يعرف اهي الرابعة وربع صباحا ام مساءً، ولا في اي عام توقفت تلك الساعة

عن العمل! لكن الجميع يضبطون حركة يومهم على هذه الساعة الميتة وعلى هذا الشلل الخالد.

وفي غرفة في الطابق الارضي، كان البابا في غرفته يجلس على كرسيه الهزاز صاحب الجلد المتشقق من كثرة الاستعمال.

رجل في الثمانين من عمره وربما يزيد، وجهه يفيض طيبة وحنانا، يرتدي بدلته الكحيلة القديمة التي يعود تفصيلها لثمانينيات القرن الماضي، حريصا على نظافتها وتنسيقها كأنها بدلة العيد.

حول كرسيه احتشد الاطفال، يوزع عليهم قطع حلوى رخيصة بلا غلاف، يربط على راس هذا ويداعب هذا، وهو يمسح زجاج ساعته القديمة، ثم يقول بصوته الدافئ:

— "كل حاجة مضبوطة بالملّي يا اولاد... انا مطمن الدار امان، وانتم اولادي السعداء في بيتنا الجميل، اما اللي عايشين بره سور الدار ده مش سعداء ولا عمرهم عاشوا في امان ده لانهم مبيفهموش حاجة... وبكرة تكبروا وتفهموا."

وخارج المبنى، في الحديقة الترابية، كانت سيارة البابا القديمة تحت شجرة كافور عجوز.

اطاراتها الغاطسة في التراب تعلن منذ سنوات انها لن تتحرك ابدا، لكن بالنسبة لسعيد... كانت هذه السيارة هي مقره الخاص.

كان سعيد يسند كوعه على شباك السيارة الخالي من الزجاج، يراقب المراجيح الحديدية المكسورة وهي تصدر صفيرا كلما حركها الهواء.

نظر سعيد نحو طفل صغير يحاول اصلاح سلك المورجيحة بقطعة قماش، وقال بصوت عالٍ وابتسامة ساخرة:

— اربط يا بني اربط... البابا دايما يقول لنا ان القماش بيحل محل الصلب، قطعة القماش دي احيانا اقوى من الحديد! بيسميها البابا عقيدة الخيط والفتلة مش فاهم يقصد ايه لكنه اكيد هو صح...

وعلى زاوية اخرى من الجنينة، كان بكر يقف بجسده الطويل ونحافته البارزة، بملامحه الوسيمة التي تشف عن طفولة متأخرة وعقل يتردد في التساؤل - عقل يفكر ومنطق يتشكل.

كان بكر يراقب اخته في الدار فاتن الجميلة بنظرات محملة برومانسية نابضة، وهي تمر بين العنابر.

فاتن، التي اكتملت انوثتها فجأة كأنها وردة نبتت في ليلة واحدة، الجمال الذي يفيض بحنان يجعل كل اطفال الدار يلتفون حولها كأنها امهم الصغيرة.

بينما كانت منى الاخت الاصغر البنت الجميلة ذات الملامح الناعمة، كانت ترمق فاتن بنظرات غيرة مراهقة مكتومة؛ ففاتن سبقتها بخطوات في النضج واستحوذت قلوب الجميع دون جهد.

وفي تلك الاثناء، خرج البابا من غرفته يتهادى بكرشه الكبير وابتسامته الواثقة التي لا تفارقه نحو الباب المؤدي للحديقة.

نادى على بكر بصوته الدافئ ليساعده في نقل بعض الصناديق والمؤن الخفيفة الى عنبر البنات :-

—"تعال يا عم المبتسم... ساعد ابوك، يلا ندخل الحاجة دي لأخواتك البنات".

وكانت تخشى فاتن ان يراها البابا وهي تقف تتأمل بكر وتسترق اللحظات معه، فركضت بسرعة مارةً من بينهما لتصل عند مدخل العنبر وكأنها كانت هناك منذ البداية، تجد الطفلة زهرة تجلس علي باب العنبر تجلس جانبها لثواني لتتخطي كسوفها وبعد ان تقف يطبع مكان جلوسها نقطتين من الدم الداكن.

.

لكن اثناء ركضها الخفيف، ونتيجة لنضجها المفاجئ، انسابت من بين قدميها نقطتان على ارضية عتبة عنبر البنات دون ان تنتبه هي او ينتبه احد في تلك اللحظة.

كان بكر يجهد نفسه لنقل الصناديق مع البابا، لكن نحافته وضالة جسده جعلتا خطواته تتعثر.

التفت البابا بابتسامته الابوية، ونادى على عبدون الشاب الاصغر في السن لكنه الاقوى بدنيا ليساعدهما :-

ـــ"تعال يا عبدون يا بني... شيل مع اخوك، ايد لوحدها متسقفش".

تقدم عبدون ببنيانه العريض وشنبه الاخضر وصوته الذي بدا يخشن، وحمل الصناديق بسهولة متجاوزا بكر بكبرياء مكتوم.

وعند وصولهم لمدخل عنبر البنات، وقعت عين البابا على نقط الدم الحمراء البارزة على البلاط!

اتسعت عينا البابا بخضة وحيرة، واسقط ما في يده متناسيا كل شيء. ارتفع صوته القلق وهو يتفقد الارضية ويصيح في البنات اللاتي تجمعن حوله :

ـــ "ايه ده؟! دم مين ده؟! حد اتخانق هنا؟ حد اتعور منكم يا بنات؟"!

ساد الصمت بين البنات، وتنقلت العيون في فزع وجهل تام بما يحدث.

ظل البابا قلقا يسال ويفحص الايادي والاقدام دون ان يجد اجابة او جرحا ظاهرا يدله على شيء ليطمئن على بناته، فخرج من العنبر وهو يضرب كفا بكف، مسكونا بذهول وقلق لم يعتده الاطفال منه.

وفي المساءً، حين اظلمت الدار واختبا الجميع في عنابرهم، وتسللت منى الاخت الاصغر بخطوات خفيفة نحو غرفة البابا.

كانت الغيرة من فاتن تنهك قلبها الصغير، وترغب باي طريقة ان تسحب بساط المحبة من تحت قدمي اختها الكبرى.

طرقَت الباب الخفيف، ودخلت وهي تتصنع الخوف والارتباك،

وقالت بصوت متهدج :-

ـــيا بابا... انا خايفة اقولك، بس بصراحة... فاتن شكلها عيانة جدا، وهي اللي بينزل منها الدم ده... وده مش النهاردة بس، ده

بقاله يومين ومش من ايدها يا بابا "!واشارت باستحياء وجهل وغيرة مراهقة نحو موضع بين فخذيها.

دارت الاحتمالات في راس البابا العجوز. تنفس بعمق، ثم قام ونادى على عبدون القوي، وامره بصوت صارم :

—"تعال يا عبدون يا ابني نادي اختك فاتن... وبعد ما تدخل تقف انت هنا على باب الأوضة، ومتخليش اي مخلوق يدخل ولا يقرب".

وتوجه عبدون لعنبر البنات ليجد جميع الاطفال ملتفين حول فاتن التي تتوسطهم تجلس بملابس نوم فاتنة تلاعب الصغار كالوردة التي تداعب الفرشات.

قال بصوت مرتبك:

— يا فاتن كلمي البابا عايزك.

ودخلت فاتن غرفة البابا ووقف عبدون يحرس الباب، لكن فضول المراهق وشنبة الاخضر الذي بدا يثبت على شفته دفعاه للالتفاف.

امال راسه ولصق عينه بالثقب الصغير المتأكل في كرتونة "بسكو مصر" التي تغطي كسرا في زجاج باب غرفة البابا.

من خلف الثقب، رأى عبدون البابا يطلب من فاتن الجلوس. والبابا، بعقليته الابوية البسيطة والبدائية، اراد التأكد من مصدر الدم، كان يفحص جسد ابنته الجميلة التي بدا جمالها كملاك رسمت على لوحة لتجمل جدران قصر في الجنة.

كان البابا يفحص قدمها يعتقد ان بها اصابة وبنقاء ابوي خالص، وحين ادرك الحقيقة، تهللت ملامحه وضم فاتن الى صدره بفرحة اب وبحنان شديد وهو يطبطب على ظهرها ويقول :

—"مبروك يا فاتن... كبرتي خلاص وبقتي عروسة"! وبدا البابا يشرح لها ببساطة اب هو نفسه لا يمتلك الخبرة لينصحها كيف تنظف جسدها وتتعامل مع هذا الدم الطبيعي، وقال:

كمان كام ساعة العربيات جاية ورايح على المدينة اجيب خزين الدار الشهري

ومن هنا ورايح كل مره هاعمل حسابك انتي واخواتك البنات اللي ها يكبروا زيك وهجيب فوط صحية ومستلزمات النظافة العناية الشخصية للعرايس.



لكن عبدون... لم يسمع حتى كلمة واحدة من هذا الحوار كان يشاهد من خلف الباب دون القدرة على سماع الحديث!

كان المشهد لدي عبدون مختلفا تماما وشديد التشويه.

عيناه المراهقتان اللتان تتفتحان لأول مرة على الجسد، ركزتا على تفاصيل جسد فاتن؛ ولم يفهم لماذا خلعت فاتن ملابسها ولماذا يرى البابا جسدها ولم يعي ان هذا حضن البابا وفاتن حضن اب،

عبدون رأى البابا يمارس سلطته المباشرة على جسد فاتن!

وفي عقله المشوه حديثا، امتزجت فكرة "امتلاك السلطة" بـ "استباحة الجسد والشهوة."

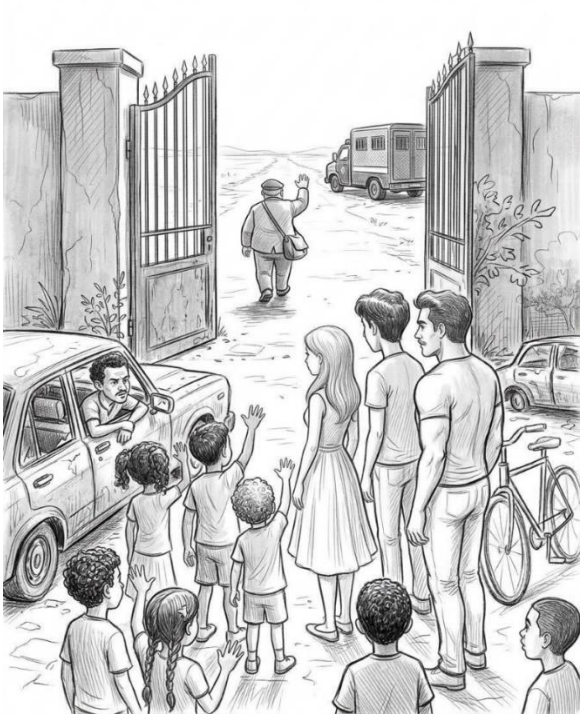
وعند الظهيرة خرج البابا من الغرفة يبتسم، مسح على راس فاتن التي بدت هادئة ومطمئنة ارتدى كابه القديم وامسك بحقيبته المتأكلة، متوجها نحو البوابة الحديدية التي تجمع عندها الاطفال ليخرج الى المدينة.

وقف الجميع يودعونه، بينما كان عبدون يقف جانبا ينظر لفاتن بعيون جديدة تماما... عيون تحسست القوة والشهوة في ليلة واحدة،

وعند البوابة الحديدية طبطب البابا على كتف عبدون الصلب وقال:

— "انا طالع اجيب خزين الشهر من المدينة... تبقوا عاقلين كده، محدش يلمس حاجة، ومحدش يعمل حاجة من دماغه... مفهوم؟"

رد الاطفال بصوت واحد: "مفهوم يا بابا!"



فتح البابا البوابة الثقيلة، وخرج بخطواته البطيئة على الطريق الصحراوي الممتد.

وقفت فاتن ترقب اثره، وبكر الى جوارها يتابع الطريق، بينما اطل سعيد من شباك السيارة القديمة وقال بصوت واطي :-

—"خزين الشهر؟ رايح يصرف التموين اصل البابا عايش في ٢٠٢٥ بعقلية الثمانينات... ربنا يستر ولا يرجع بكرتونة مكرونة مسوسة ويقول لنا دي تنمية مستدامة والكلام الكبير اللي بقوله ده"!

اغلقت البوابة، وغرقت الدار في صمت غريب، بينما كانت الشمس تتوسط السماء، والبابا يبتعد ويختفي تدريجيا في السراب... دون ان يعلم احد ان هذه كانت المرة الاخيرة التي يرون فيها ظله.

الفصل الثاني:
المـــــورجـــــيحـــــــة

مر يومان، والشمس تشرق وتغرب فوق الدار بذات الشلل الخالد؛ عقارب الساعة النحاسية في الممر الرئيسي لا تزال مسمّرة عند الرابعة وربع، لكن الزمان خارجها كان يمر ثقيلا كالجبل.

وقف اطفال الدار في الجنينة الترابية حول سيارة البابا العجوز.

كان سعيد يسند كوعه على شباكها المخلوع كعادته، يرقب المراجيح الحديدية المصنوعة من المواسير والجنزير الصدِئ.

وكان بكر يقف ببدنه النحيف بجوار «فاتن»، وجهه مشدود بقلق العارفين، وعقله الذي بدا يتشكل يقوده لنطق المسكوت عنه.

تنفس بكر بعمق، وقال بصوت وادع يحاول اخفاء ارتباكه:

ـــ" البابا أتأخر اوي يا ولاد... دي اول مرة تحصل.

الخروجة الشهرية مبتاخدش اكتر من اربع ساعات.

البابا ممكن يكون ها يتأخر اكتر... وممكن ميكونش راجع اصلا!
البابا ممكن يكون.... مات!

ولازم نفكر هنعيش ازاي من غيره".

وقبل ان يرتد صدى كلماته في الجنينة، انشق الهواء عن حركة خاطفة؛ سقطت قبضة «عبدون» القوية بصفعة فائقة المتانة على فم بكر.

طارت النحافة البارزة في جسد بكر خطوتين للوراء، وسقط ارضا يده تدور حول فمه المضروب في ذهول طفولي كامل.

شهقت «فاتن» بصوت عالٍ واهتز جسدها فجأة من الخضة، واندفعت المراهقة لحماية بكر.

وفي تلك اللحظة بالتحديد، لم يلمح عبدون انكسار القيم ولا دموع بكر، بل انسابت عيناه المراهقتان –اللتان تفتحتا ليلة البارحة خلف ثقب كرتونة "بسكو مصر"– لتلتصقا بكل انحناءة في جسد فاتن؛ قرا في عينيها خيبة امل ونظرة ناعمة تتجه لنحافة بكر المضروب، فارتفعت الحرارة في راسه واشتعل الحقد في صدره.

وساد صمت مروع بين الاطفال. كانت هذه هي المرة الاولى التي يرفع فيها اخ يده على اخيه في عالم البابا.

قطع الصمت طفل صغير، لا تتجاوز ركبتاه حدود العاب الحديقة، مسك بطرف ثوب عبدون وقال بصوت خائف ومكتوم :

ـــ هو البابا مش راجع بجد؟ طب مين هيغسل الهدوم اللي اتوسخت؟ ومين هيمسح الممر؟ البابا كان بيلف علينا بالليل يغطينا واحد واحد، وكان يقطع البطاطس ويولع النار من غير ما حد فينا يتلسع... هنعمل ايه يا عبدون؟"

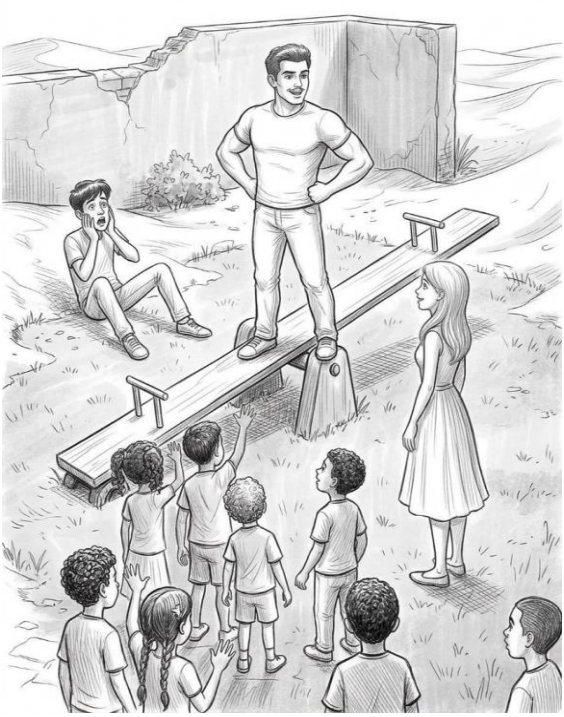
تنهد الاطفال بذات القلق، مستحضرين طيبة البابا العطوفة والخدمية الشاملة التي طالما اعتبروها حقا مكتسبا.

وهنا، وفي لقطة انتشاء فورية بسؤال الطفل الصغير الذي التقطه عبدون، وكانت فرصة لكسب مشروعية.

وبعد ان كان يخشى عاقبة ضرب اخيه بكر، لمحه الجميع وهو يتنفس بثقل، متضخما بعضلاته وعوده الصلب.

وبخطوات واثقة ومسرحية، تحرك نحو ارجوحة الميزان الخشبية القابعة في منتصف الجنينة — لوح خشبي طويل يرتكز على دعامة متينة، يُلعب عليه بالتبادل.

لم يجلس عبدون على اطرافها كالأطفال، بل قفز فوق نقطة الارتكاز المركزية تماما؛ وبحركة عفوية لم يكن مدربا عليها، وقف قدما يمينا والاخرى شمالا، باعد بين ساقيه باحتراف ليحكم توازن اللوح الخشبي ويجمّده افقيا في الهواء. ارتفع بجسده فوق مستوى رؤوس الجميع، واضعا يديه في خصره ليطل عليهم من منصة الميزان.



ثم تنفس بملء رئتيه، ومدّ حرف الباء بنبرة مطاطية واثقة" :

— طبعا!... البابا كان معلمنى كل حاجة، ومفهمنى الدار دي بتدار ازاي"!

وفي لحظة خاطفة، حدث التحول الجماعي السحري؛ مسح الاطفال اثر القلم المحترق على وجه بكر، وتلاشى الخوف من عضلات عبدون.

اشترى الجميع «الوهم المريح» للنجاة من الرعب الوجودي.

وتنفست فاتن براحة وارتسمت على شفتيها ابتسامة اطمئنان خفيفة لان هناك من سيميل عليه البيت،

بينما كانت «منى» تقف عند زاوية العنبر، ترمق بكر المكسور بنظرة شماتة مراهقة من فوق لتحت، وتدرك بذكاء تدميري ان القوة في الدار انتقلت رسميا لعبدون.

وفي تلك اللحظات، وبحركة بهلوانية خفيفة، قفز عبدون من فوق المورجيحة الى اخرى ليستعرض انه قادر على السيطرة على اي شيء، واطلق اول قراراته "العظيمة" :"

ـــمن النهاردة مفيش انتظار ومفيش كسل! الدار دي هتبقى اكبر مركز تجاري... بكر وشوية العيال اللي معاه هيجيبوا عربيات الخشب القديمة بتاعة الخضار المركونة ورا المطبخ، ونلف بيها جوة الدار نبيع ونشتري من بعض! ابن العنبر ده يبيع الخيار لابن العنبر التاني، ونعمل سوق ورخاء والفلوس تدور بيننا ونبقى اغنياء من غير ما نحتاج للشارع برة"!

ارتفع صوت بكر المبحوح من الارض، وهو يمسح الدم عن شفته" :

— نبيع خضار لمين؟ انت بتهزر ولا بتتكلم جد؟!

هو احنا عندنا خضار اصلا عشان نبيعه؟! الخضار كان بيجي من برة مع البابا، والتجارة بيننا من غير زرع ولا انتاج حقيقي مش هتجيب طماطماية واحدة... دي تجارة فنكوش هتجوعنا اكتر!

لازم نلاقي موارد جوة الدار ونتاجر مع الناس اللي برة السور، وقتها بس الدار هتكمل واخواتنا هيبقى في امان".

اهتزت ثقة الجميع في عبدون للحظات معدودة، والجميع ينظرون للأخ الاكبر بكر ثم يلتفتون لعبدون في انتظار كلمات تطمئنهم.

تغيرت تعابير عبدون، واشتعل وجهه؛ لقد استُهدفت هيبة "البابا الجديد". قفز من فوق المورجيحة بقسوة، واشار نحو بكر بنبرة تخوين حازمة" :

ـــ خائنٌ!!

بكر عايز يهد روح ومعنويات الدار! وينشر اخبار كاذبة ويضر بالأمن القومي ويؤثر على الهيئة العامة للسلام الاجتماعي، ده غير انه بيهدم قيم اسرتنا ودارنا اللي اتربينا عليها... ده عايزكم تموتوا من الجوع عشان يثبت انه صح"!

امتدت يد عبدون القوية وسحبت بكر من سواعده النحيفة، يجرّه نحو احدى الغرف في البدروم المهجور.

ارتفعت اصوات الاطفال المذعورة:

ـــ "سجن؟ عبدون هيسجن اخونا الكبير؟! البابا عمره ما عمل كده"!

توقف عبدون عند سلم البدروم المتأكل، ودار بكبرياء الممتلك للتسميات الجديدة، قائلا بنبرة عصرية مغلّفة بالتجميل اللفظي

— : سجن ايه؟ لا سمح الله! .... هو انا سفاح؟ لا ده انا عادل اوي ومؤمن اوي وصادق اوي انتوا متعرفوش ولا ايه .... صحيح

انا منكم وانتوا نور عينيا! وده مش سجن، ودي مش زنزانة...

ده «مركز الاصلاح والتأهيل»، وبكر مش سجين... بكر «نزيل» لحد ما يتصلح فكره ويبطل احباط فيكم"!

خيم صمت مرعب وثقيل على الجنينة، صمت الخوف من القوة ومن المصطلحات الجديدة التي تزين البطش.

وفجأة، شُق الصمت بصوت تصفيق بطيء؛ كانت «منى» تتقدم بخطوات خفيفة، وتصيح بنبرة حماسية مصنوعة مدفوعة بالتشفي في بكر وفاتن وهي تنظر لعبدون بأعجاب :

ـــ"انت صح يا عبدون"!

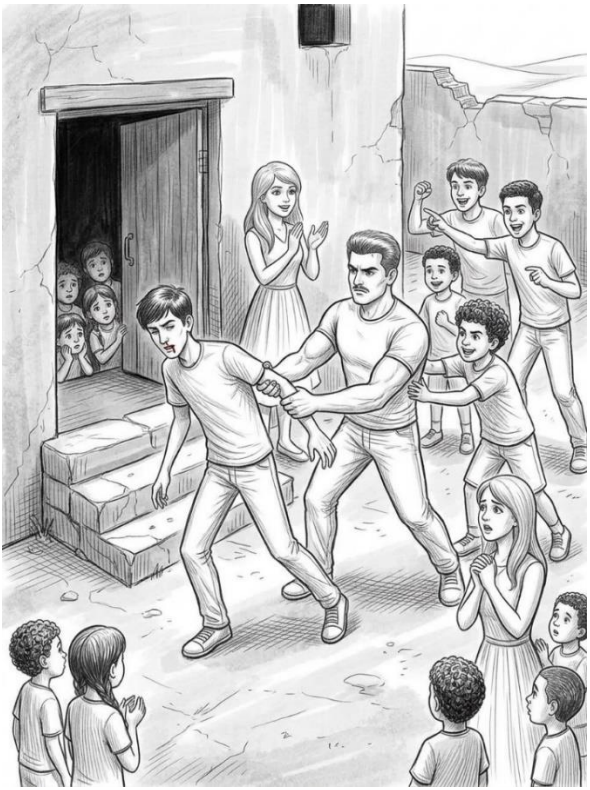
ثم هتفت بصوت عالٍ" :

يعيش البابا..... ويعيش عبدون!

يعيش البابا..... يعيش عبدون!

وهتف الجميع خلفها: ـــ

يعيش عبدون.... يعيش عبدون



الاخوة الاولاد، هتفوا، ثم كبّلوا اخاهم الاكبر بكر وهم يواصلون الهتاف حتى اوصلوه الى البدروم، ودُفع بكر نحو محبسه واغلق الباب بالقفل القديم.

كان التقاط الاطفال للهتاف خلف منى توهما جديدا للأمان، متناسين بكر القابع خلف الباب المغلق، ومتجهين نحو عربات الخضار الخشبية الفارغة ليبدا

اول ايام الفاشوش

الفصل الثالث
طبيب الفلاسفة

كانت غرفة البابا العجوز في الطابق الارضي تبدو كضريح هجره ساكنه؛ الرطوبة تنخر في جدرانها، والكرسي المتهالك ذو الجلد المتشقق يقبع في المنتصف كعروش الملوك المنسيين.

جلس عبدون على كرسي البابا لأول مرة، يلبس كاب البابا العجوز المخملي الذي يتدلى على عينيه قليلا.

كان يتنفس بثقل، وبشهوة السلطة التي تذوقها الصباح على منصة الميزان الخشبي تتشابك وكانت في راسه مع شهوة قديمة ومكبوتة.

فُتح الباب ببطء، وتسللت «فاتن». ملابس تنظيف المبللة بالكامل زادت جمالها بعد ان قضت النهار في غسل الممرات، وشعرها الحريري الابتلال يلصقه برأسها ليبرز ملامح وجهها الهادئة الساحرة.

وقفت عند عتبة غرفة البابا الجديد "عبدون"، انفاسها متسارعة وصوتها يرتجف محاولة مساعدة بكر

— "يا عبدون... انت لو محطتش اكل ومياه وعلاج لبكر في البدروم هايموت!

وقتها باقي اخواتنا هيزعلوا منك ويكرهوك... حرام عليك بكر برضوا اخونا الكبير".

عبدون لم يكن يسمع كلمة واحدة مما تقول.

ارتفعت نظراته من اسفل قدميها، تتسلق الساقين والرُكبتين، لتستقر عند صدرها تحت القماش المبلول.

كان عبدون سجينا في شهوته، يتذكر ليلته القديمة وهو يتلصص من ثقب كرتونة "بسكو مصر" خلف الباب، يتذكر كيف كان البابا يحتضن فاتن.

مد يده بطمأنينة ثقيلة، وقال بصوت مبحوح وهو يحاول اطالة الحديث قدر الامكان ليظل يشخص في جسدها" :

ـــ طب ورايك ايه؟ اقعدي... اقعدي يا فاتن ونتكلم".

كان يطلب منها الجلوس ليُعيد انتاج ذات المشهد الذي لم يبارح مخيلته لحظة حتى في احلامه؛ كان متعجلا ليأخذ ذات الحضن، ويمد يده ليفحص جسدها ويرى الدم الذي راه مع البابا الراحل على الارض.

لكن فاتن، بدهاء انثوي وفطرة خائفة، تراجعت خطوتين للوراء، وعيناها تتسعان بانتفاضة خائفة، ثم سحبت جسدها وغادرت الغرفة وهي تردم الخوف في صدرها.

وفي نفس اللحظة، وعلى بُعد خطوات من الباب، كانت «منى» تقف عند ذات الثقب في كرتونة "بسكو مصر."



كانت تتابع المشهد بعيون تلتهم فاتن بغيرة سوداء؛ رات كيف ينظر عبدون لملابس فاتن المبتلة، وكيف يتأمل انحناءاتها.

اشتعل الحقد في صدر منى، وانسحبت بخطوات متغيرة نحو الممر الفارغ.

وقفت امام المرآة المكسورة في زاوية العنبر، خلعت ملابسها الفضفاضة، ونظرت لجسدها امام انعكاس زجاج المرأة وهي تهمس بغيظ مكتوم:

ـــ"ما هو حلو اهو! اشمعنى هي؟ طب يمكن عشان هي مبلولة مية؟"

جرت نحو الزير، وقذفت المياه على جسدها وثيابها حتى ابتلت بالكامل، لكن الانعكاس لم يرضيها.

وفجأة، ذهب عقلها الى فكرة بدائية ومظلمة" :

ايوه! هو الدم اللي عندها ومش عندي! البابا كان بيحبها عشان الدم... لو نزل منى نقطتين دم الكل ها يحبني ويسمع كلامي، وعبدون يعجب بيا انا"!

ركضت نحو المطبخ، وسحبت سكينا قصيرة، ووقفت في زاوية العنبر تنزع ملابسها لتجرح نفسها من الاسفل لينزل الدم.

وقبل ان تغرس السكين في جسدها، دخلت فاتن فجأة.

انقبض قلب فاتن وركضت نحوها، سحبت السكين من يدها بقوة وصحكت على اسنانها" :

ـــ بتعملي ايه يا مجنونة؟! انت متخلفة؟"!

منى تصرخ وتبكي بحقد" :

ـــ سيبيني! انت عايزة عبدون يبصلك انت بس! البابا كان بياخدك جوة وبقي بيحبك اكتر مننا من ساعة ما حصل موضوع الدم ده... انا كمان عايزة الدم ده يبقي عندى"!



توقفت فاتن في مكانها، واستوعبت عمق الجهل الذي يغرق فيه اطفال الدار.

انخفضت نظرتها برحمة اخت صادقة، وامسكت يد منى المرتجفة وقالت بنبرة حنونة" :

ـــ يا عبيطة... انتى فاكره الدم ده بتعويرة بسكينة؟! ده مش تعويرة... كل البنات لما تكبر وتنضج بيحصلها كده بخلقة ربنا.

متخليش حد يفهمك حاجة غلط... انتى جميلة يا منى، واجمل منى كمان! بس انت عشان شافاني انا، مش شايفة نفسك... انا بشوف عبدون وهو بيبص عليكِ انتى كمان ومعجب بيكي".

احتضنتها فاتن بحب وطيبة دافئة ووضعت منى راسها على كتف فاتن، لكن عينا منى المفتوحتين فوق كتف فاتن كانتا تلمعان بحقد لم ينطفئ؛ غير انها اخذت في نفس اللحظة ثقة جديدة وشرسة في جمالها وجسدها.

وفي الصباح التالي، تعمدت منى ارتداء ملابس ضيقة ومغرية.

خرجت من العنبر بخطوات واثقة، ونزلت بين الاطفال والجياع في الجنينة، وبدأت تدور على كل ايتام الدار وتحرضهم بنبرة مظلومية خبيثة" :

ـــالاكل اللي عايز عبدون يدخله لبكر في البدروم احنا اولى بيه! بكر قاعد مبيعملش حاجة ومبيشتغلش، واحنا اللي شغالين

بدون فايدة! والبابا مش موجود... ليه بكر ياخد مجهودنا واكلنا وهو محبوس؟"!

بدا الاطفال الصغار، وضغط الجوع يعصر بطونهم، يتردد وراءها بغير فهم" :

— صح!... بكر بياكل اكلنا لييييه؟"!

وصلت ضوضاء الجنينة لمسامع عبدون، فخرج، ليتفاجأ بإرهاصات اول عصيان وتجمهر من الاطفال.

صاح احدهم وهو يشير على عبدون" :

— انت سمعت كلام فاتن وهتدي اكلنا ومجهودنا لبكر المحبوس؟"!

شاط عبدون غضبا وصرح" :

— مين اللي قال العك ده؟"!

رد الاطفال بصوت واحد" :

— منى!... منى هي اللي قالت كده"!

التفت عبدون نحوها، ولأول مرة تقع عيناه على منى وهي تقف بملابس مثيرة لم يراها بها قبل ذلك.

انبهر عبدون بجمالها كانه يكتشف لأول مرة ان في الدار اناثا جميلات غير فاتن.

لكنه، ولكي يكسر التجمهر ويستعيد هيبته امام الاطفال، قرر ان ينتصر لهيبة قراراته على حساب غريزته، ويجعل من منى كبش فداء ليثبت انه لا يُقاد

وكان شهوة السلطة قد طغت بعقل عبدون علي ما دونها من غرائز وشهوات اخر.

وقف عبدون وسط الجنينة، ونفخ صدره، وصاح وهو ينظر لشكل منى بحدة واستعلاء" :

ـــانا لا بسمع كلام فاتن ولا غير فاتن ومفيش حد يقدر يلف على وداني باي هبل واصدقه!

انا ربنا خلقني مختلف... ربنا خلقني «طبيب الفلاسفة»!

اعرف المرض واوصف علاجه والبابا بيجيلي دايما في احلامي

وجالي امبارح في المنام وقالي: حافظ على كل ولادي يعيشوا كويس لحد ما ارجع... ومقدرش اسيب بكر يموت من الجوع لان حسابه عندي انا!

وبما ان بكر اخد جزاءه عشان كان عايز يعرضكم للخطر الخارجي، يبقى لازم اي حد يغلط غيره ياخد جزاءه برضه!

وانا راجل عادل اوي.... وصادق اوي .... صحيح ... واختكم منى ارتكبت خطا كبير ووقعت بين الاخوات وشقّت الصف، ولازم تتعاقب"!

واللي كسر كوباية لازم يحاسب عليها

ثم اشار بيده بقسوة" :

ـــ امسكوها... وتنزل البدروم في الأوضة التانية"!

ارتفعت صيحات الخوف وقفز اثنان من الاخوة الكبار وكبلوا يدي منى من الخلف.

خافت منى وبدأت تقاوم وتصرخ، بينما عبدون يراقب جسدها اثناء المقاومة لا يرى العنف ولا الضعف فقط يرى جمالها.

ابتعد الاطفال المذعورون، ومن بينهم كانت اصغر بنوتة في الدار تقف بعيدا يملا الرعب عينيها الصغيرتين.

فجأة، رفع عبدون يده وقال للولدين اللذين يقيدان منى :

ـــ "استنوا!... هاتوها على اوضتي الاول، في حاجة مهمة لازم تتنسق وتتعمل قبل البدروم".

سأله احد الاخوة بغير فهم:

ـــ هاتعمل ايه يا عبدون في الأوضة؟"

رد عبدون بكبرياء السلطة وغرورها" :

ـــ انا عارف انا بعمل ايه!

ومن هنا ورايح متسمعوش كلام حد غيرى ومش عايز زحمة... اتنين او ثلاثة بالكتير يكتفوها ويطلعوا معايا".

سحبوها لغرفة عبدون (غرفة البابا سابقا). ثبتها الولدان على الكرسي.

تقدم عبدون بثقل، ومد يده من تحت ملابسها بوقاحة متحسسا جسدها وكل ذلك تحت غطاء السيطرة.

صرخت منى وهي تتلوى، فساله الاخوة بذهول" :

ـــ انت بتعمل ايه يا عبدون؟"!

رد عبدون وهو ينظر للفضاء بجمود" :

ـــ زي ما البابا كان بيعمل بالظبط!... بتأكد دايما ان البنات معندهاش دم هنا"!

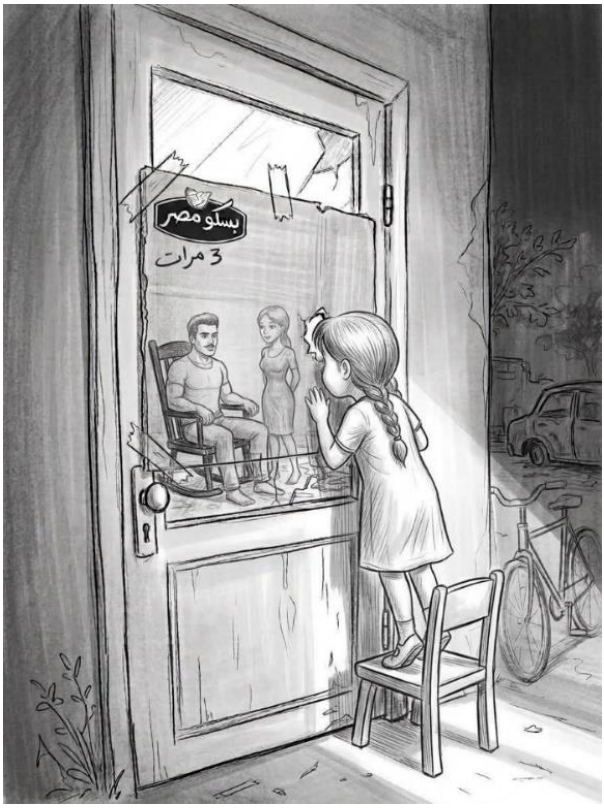
في خيالات عبدون المريضة في تلك اللحظة، لم يكن يرى منى؛ بل كان يتخيل ان من بين يده فاتن،

ينتهك جسدها بحجة الفحص والتفتيش، كان يؤلمها بينما هي تبكي وتختنق

والجميع يراها ويسمعها عدا عبدون مازال عقله متوقف عند مشهد فاتن والبابا.

وبعيدا عند باب الغرفة، كانت البنوتة الصغيرة قد تسللت صامتة، استعانت بكرسيها المخصص للأطفال وقفت عند ذات الثقب في كرتونة "بسكو مصر"...

اختلست النظرات بعيون طفولية واسعة، تراقب ما يحدث بغير فهم لصغر سنها، لتستقر اللقطة في ذاكرتها الى الابد.



سحب عبدون يده واخذ نفسا عميقا، ثم اشار للأخوة بنبرة واثقة وباردة" :

ـــ تمام... خدوها على البدروم، ودخلوها الأوضة التانية".

دُفعت منى، بقهرها وثوبها الممزق، نحو محبسها المظلم في غرفة البدروم الثانية، ليكون للدار الان سجينان:

بكر..... في سجن الرجال

منى..... في سجن النساء

وعبدون يحكم السطح بصفته ..... طبيب الفلاسفة.

الفصل الرابع:
اقتصاد الـ ولا حاجة

في الصباح التالي، لم يعد في الدار سوى الاوهام والدفاتر القديمة.

وبعد ان فرغ "عبدون" من ترسيخ سلطته على الدار وعلى اخوته من الايتام

تثبيت اقدامه بوصفه ليس فقط البابا وانما "طبيب الفلاسفة"، وقرر ان يخوض معركة الاقتصاد الكبرى؛ فوزّع موارد الدار المتبقية

— ما بين اكل شحيح، وعصير، وعلاج، وحتى مقاعد الجنينة واحجارها والعابها –

وجعل كل ركن ملكا لمجموعة او لشخص بعينه.

هكذا اصبحت المصطبة ملكا لفلان، والزاوية القريبة من الشجرة اقطاعية لعلان.

ودارت العجلة في الدار كأننا في سوق حقيقي: الكل بيبيع، والكل بيشتري، والكل يأجر ويؤجر لغيره!

طفل صغير بيبدل رغيف عيش بكرسي، وبائع الماء يكتب صك وهمي على ورقة مهترئة.

وفضلت الفلوس والديون رايحة جاية بين عيال ما بيعرفوش بيعملوا ايه؛

الفلوس بتدور في حلقة مفرغة، ومفيش لا حبة قمح بتزرع ولا شجرة بتطرح، ومفيش حد فيهم فكر لما المخازن تفضي والاكل يخلص ايه اللي هيحصل.

كام يوم وفجأة... صحي الكل على وجع البطون الفاضية، مفيش مخلوق عارف يعمل ايه بالورق والفلوس اللي ما تشبعش جعان ولا تستر عريان دي.

وهنا، تقدم سعيد كعادته مبتسما، عائدا من سيارة البابا العجوز، لكن ابتسامته هذه المرة ابتسامة مريرة، وبصوته الذي يحاول ان يكسر حدة السوداوية قال:

— «يا اخواننا... انا مش مستغرب الدفاتر دي وشوية الاوراق اللي مسمينها عملة وهم كبير؛ واحنا عشناه، وبعنا الحجر، وعبدنا الصكوك، واهو الحلل فضيت والثلاجة مفيهاش غير مياه تقضينا ١٠ سنين.

واهو في السوق الوهمي بتاعنا مفيش ولا سلعة ولا مشترٍ ولا بايع ... النبي، تعمل ايه الفلوس في ايد جعان لو مفيش حاجة يشتريها؟!

اقولكم انا عندي حل معتبر:

— جمعوا فلوسكم وصكوككم في غطاء مخدة، اعملوا منها عرايس ... اه عرايس وخدوها في حضنكم يمكن تدفيكم وانتوا نايمين، او اطحنوها واعملوا منها علف للي هايموت من الجوع

اهو العلف احسن من مفيش... يا اخونا العملة اللي ما تشتريش حاجة ملهاش عازة! »

ويدير سعيد وجهه ليتركهم ويدخل لينام..... فجأة يلف وشه ويرجع بحركة بهلوانية:

ثواني ثواني ثواني!

انا لسه واخد بالي من حاجة فيه مثل شعبي ما كنتش فاهمه غير دلوقتي؛ كان دايما البابا ـــ ربنا يرجعه لينا بالسلامةـــ اما حد يعمل حاجة ملهاش لازمة يقوله: "بلّه واشرب ميته"... (ولا يوم من ايامك يا بابا) ...

تفتكروا المياه بعد ما نعوم فيها الجنيه ها تشبع اكتر من المياه بتاعة العشر سنين الثلاجة؟!

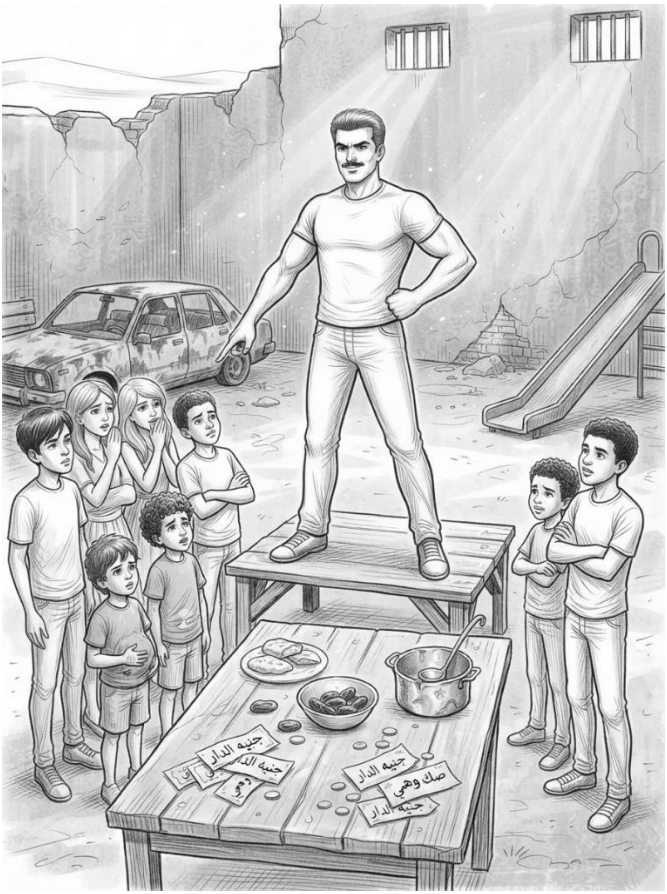
يلا يا ولاد، اللي معاه جنيه بسرعة يبله ويشرب ميته!

بعض الصغار مفهموش حاجة من سعيد لكن الباقي ضحك ضحكة صفراء باهتة، وعاد الصمت وثقل على الاجواء، ووجه الصغار انظارهم لعبدون، وقالت بنوتة صغيرة مش فاهمة ايه اللي بيحصل:

— «يا عبدون، ناكل ازاي ومفيش غير شوية اكل صغيرين، واللي معاه بيبيع بفلوس كتيييير اوي؟!»

عبدون بثقته غير المبررة رد وقال:

— «عارفين حل الغلا ده ايه؟!» ... ولم يرد احد.



كرر عبدون كلامه: — «عارفين حل الغلا ده ايه؟!» ...

«الحاجة اللي تغلي عليكم متشتروهاش!»

ورغم عدم فهم الصغيرة وباقي الاخوة الايتام كلام عبدون، الا انهم شعروا بحالة من عدم الرضا، وساد صمت يحتضن همهمات الايتام.

عبدون، عمره ما بيعترف بغلطه؛ يدرك انه امام مشكلة، ولكن لا يعترف حتى لنفسه بخطئه، ولديه يقين غير مبرر انه سيجد حلا اما عن طريق ذكائه النافذ او ها يجيله الهام او حتى يجيله البابا في المنام واللي ربنا في ظهره مبيعطلش.

عبدون شاف في همهمات وكلام اخواته قلة ادب وتمرد على حكمته.

وقبل ما يكمل كلامه وفي وسط حالة الخوف والجوع، فجأة نوران — احدى بنات الدار— قالت بصوت عالي اعتراضا على المهزلة دي، — لكن ملحقتش وقبل ما تقول وقبل ما تتكلم كان كافي شكلها المتعصب اللي بيقول انها ها تعارض، عبدون سكتها وقال بغضب:

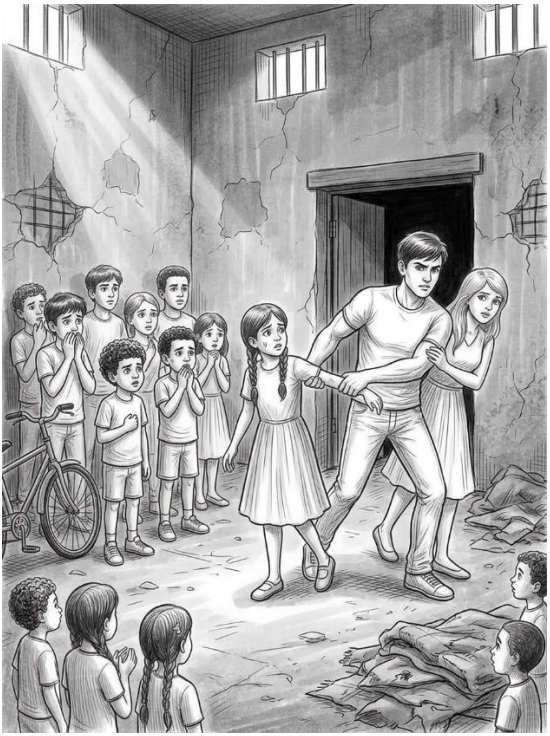
— «على سجن النساء... تنزل فورا!

مفيش هنا حد يكسر كلامنا ويضر بالسلام الاجتماعي... انتوا مش عارفين يعني ايه دار؟

اصبروا عليا كام يوم وها تشوفوا العجب العجاب، واهم حاجة متسمعوش كلام حد غيرى!»

وكمل كلامه بغضب، واشار بيده نحو نوران:

— «على سجن النساء... تنزل حالا! اصله ما يبقاش واحد مننا اللي يعترض وهو مش دارس اللي هو بيقوله ولا فاهم حاجة!»



هجم الصبية ومراهقو الدار ينفذوا الامر. مسكوا نوران وكتفوها لمحاولة سحبها بالقوة للبدروم مع اختها الكبرى منى حيث سجن النساء.

وفي زحمة الزعيق والشد والجذب، فستان نوران اتبهدل وكشف بعض جمالها،

واحد من المراهقين اتباع عبدون وقع نظره على ما كشفته ملابس نوران، وتعرف حينها على فجوره الذي دفعته اليه السلطة البسيطة التي منحها عبدون لهم على نورين وامتدت يده وتحسست جسد نوران.

وشعرت نوران بما كانت تواجهه للمرة الاولى عي عمرها، فاستجمعت قوتها وضربه على وجهه فرد الصفعة في لحظتها اما باقي المراهقين فلم يلحظوا شيئا الامر بالنسبة له ضربه وسط – الهيصة - مقاومة وخوفا من السجن

شد الايتام بقسوة اكتر ونوران بتصرخ بصوت عالي، لا نعلم اهو غضبا، ام قهرا، ام مجرد خوف من السجن،

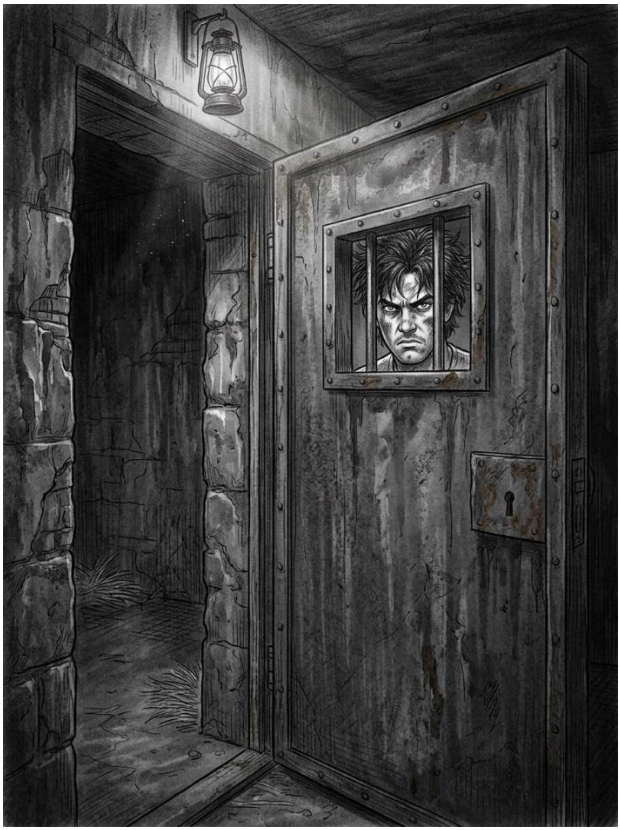
لكن الشيء الوحيد الاكيد هو ان نوران الان لم تعد مشكلتها مشاكل الدار فقط، وانما جسدها الذي انتهك امام الجميع دون ان يتعاطف احد.

واثناء نزولهم لعتمة البدروم، كان بكر المعتقل الاول في الدار يلاحظ بعين مفتوحة يراقب ما يحدث من النظّارة -الفتحة الصغيرة في باب الحجز- شاهد اخوته وهما يسحبون نوران بالشكل ده.

صرخ بكر من ورا الحديد بأعلى صوته وبكل غضبه» :

— يا عيال... يا اغبياء...

بكرة كلكم تيجوا جنبي هنا! .....بكرة كلكم تيجوا جنبي هنا«!



لم يتلفت احد لكلام بكر كانه شبح يتكلم، واكملوا طريقهم للظلمة.

وفي هذه اللحظة بالتحديد، قلب بكر كان يشتعل غيظا ومهانة من خيانة اخوته، الشرارة في عينه كانت تعلن لحظة ميلاد كره اعمي لأخواته ولعبدون ولكل اللي ساعد عبدون.

اما في الناحية الاخرى حيث سجن النساء، فكانت منى التي اصبحت مهووسة بجمال جسمها واقفة تشوف اللي بيحصل من النظّارة هي كمان.

وبمجرد ان شاهدت السجينة الجديدة، وجهها اترسم بابتسامة خبيثة؛

فرحت مني بوجود "انثى جديدة" تونس وحشة السجن، وفرصة لتشبع رغبتها المجنونة في مقارنة جمال جسدها بجسد نوران المنهك.

خرج السجانون من البدروم يسرق احدهم اخر نظرة على جسد السجينتَين.

واستقرت نوران في سجن النساء تبكي في حالة انهيار.

ومنى كانت تخفي فرحتها وراء طبطبة وتضامن مصطنع.

وبكر يعود ليجلس ظهره للباب، يسد اذنيه ويبكي ويصرخ بكلمات غير مفهومة، حتى سكت وبكي وهو يئن ويقول:

— «من سيكون ضحية عبدون القادمة؟ من سيكون ضحية عبدون القادمة؟!

الفصل الخامس:
فلوس زي الرز

لم يعد تناقص الطعام او الغلاء مجرد ارقام مهملة على ورقة بيضاء، ولا سعرا زائفا يهتف به عبدون من فوق منصته الخشبية؛ لكن تحول الى معول ثقيل يهدم ما تبقى من جدران الصمت المتهالكة داخل "دار الامل".

في الساحة الخالية، وقف ايتام الدار صبية وفتيات خاوي البطون، لا لغة تشغلهم سوى قرقرة الامعاء وصوت الهواء الخشن بين الجدران المتصدعة.

الاوراق المزيفة التي القاها عبدون كصكوك للرخاء تلاشت قيمتها في مواجهة القحط الفعلي؛ الاموال والصكوك رمادا ورقيا.

انفرط عقد الطقوس التي ارادها عبدون محكمة، وبدأت اعين الاطفال تلمع بنظرات التمرد والتشكيك، متسائلين في الخفاء ماذا

ستكون خطة اوي حتى حجج عبدون حين يواجهون الفراغ الحقيقي.

في قاع البدروم، حيث تنبعث رائحة العزل، دخلت نوران الحجز متهالكة تماما من ارهاق المقاومة والعنف الذي قوبلت به عند اقتيادها.

هناك في العتمة، رات منى حالتها. وفي تلك اللحظة، تبخرت تماما اي هواجس قديمة للغيرة او التنافس على الجسد؛

جذبت منى نوران في حضنها بفيض من مشاعر اخت حقيقية، ودموعها تسيل على وجهها تأثرا بحال رفيقتها.

وجدت نوران في هذا الحضن الدافئ ملاذا، فالقت بثقل تعبها ودخلت في نوم عميق بين احضان اختها الاكبر.

لكن النوم لم يستمر طويلا؛ وما ان غفلت اعين نوران حتى عاودت هواجس منى القديمة تحريك وسواسها.

امتدت يد منى بفضول قلق غريب لتلامس ساق نوران النائمة.

انتفضت نوران فزعا واستيقظت في التو؛ لم تكن تدري تحديدا ماذا فعلت منى لكنها تأمنها ولا تتوقع منها خطر،

ولكن مجرد اللمس المباغت في العتمة بعث في صدرها رعبا خفيا ربما ما فعله اخيها عند تكبيلها قد سجلته ذاكرة الصغير كأول انتهاك لا تستطيع نسيانه او حتى وصفه.

توترت منى بشدة، وتلعثمت في محاولة بائسة لتبرير لمستها، قبل ان تتدارك الموقف بلهفة مصطنعة قائلة:

ـــ "ايه الزرقان اللي في جسمك ده يا نوران؟!"

استخدمت منى سؤالها لتغير بوصلة الحديث،

فبدأت نوران تحكي لها بكسرة كيف كتفوها بعنف، ثم همست لها بخجل:

ـــ "عندي سر عايزة اقوله لك...".

فرحت منى وقالت بحماس طفولي:

ـــ "وانا كمان عندي سر كبير... يلا نااااميمة نميمة نميمة احكي يا موزة ".

نجحت نوران ببطيتها وفطرتها البريئة ان تبدد وحشة السجن عن منى؛ فضحكتا معا بصوت خافت يشبه تمرد الصغار.

طيب "مين يقول السر الاول؟" منى بعينين تلمعان

ـــ "قولي انتي الاول"، ردت نوران بابتسامة خافتة عيييب باختي (بتعطيش التاء) انتى الكبيرة يلا قولي.

منى بصوت منخفض يمزج براءة السن بصدمات الاكتشاف:

ـــ "فاكرة الدم اللي كان بيقطر من فاتن يوم ما دخلت العنبر فوق؟

نوران:

ـــ طبعا فاكرة يالهوي يابت انتي ناسيه ازاي خوفنا يومها وقولنا عيانة لكن يومها فهمنا بعد كدة، انها كبرت وبقت عروسة".

منى بفرحة مشوبة بالدهشة:

ـــ "خدي بقي المفاجأة دي... انا كمان بقيت عروسة!".



نوران بغبطة بريئة مع شهقة وفرح:

— "مبروووووك عقبالي يارب بقي...".

ابتسمت منى:

— " يابت احنا قريبين لبعض في السن... وانتي كمان بقيتِ حلوة، وهتبقى عروسة قريب اوي

وفردت مني صدرها ورفعت راسها عاليا بسخرية:

ـــ انا خلاص بقيت عروسة وبفهم في الحاجات دي".

تعلقت عينا منى بنوران بشغف:

ـــ "يلا... دورك، قوليلي السر اللي كنتي عايزة تحكيه".

نوران:

ـــ لا خلاص ياستي احنا ماصدقنا نضحك مش عايزة اعكنن علينا بعدين

منى:

ـــ ايه النصب ده يابت... والله ما اعديها احكي بالذوق انتي مش عارفة انتي بتتكلمي مع ولا ايه انا عروسه البدروم.

ضحك السجينتَين بصوت مرتفع ازعج سكون البدروم حتى قاطع ضحكاتهما دموع نوران التي تسللت من عينيها بغير سيطرة عليها

خفضت نوران عينيها بكسرة:

— "بس... بس السر بتاعي مش حلو زي سرك يا منى...".

ضمّتها منى بحنان حقيقي: "قولي متخافيش... اعتبريني انا اختك".

بللت نوران ريقها، وبصوت يملؤوه الارتباك والجهل البريء بما حدث، بدأت تروي:

— "وهما بيكتفوني... الواد زيدان... مد ايده على ظهري بطريقة غريبة ومخيفة... حسيت بحاجة بشعة خلتني اضربه بالقلم بكل ما فيّ... هما فكروا اني ضربته عشان رافضة الدخول للبدروم بس... بس مش ده السبب الحقيقي...".

صمتت نوران وهي تحاول بصعوبة بالغة ان تصف ذلك الاحساس الغريب والمفزع.

اقتربت منى ببطء وبشكل لا ارادي نحو نوران، كأنما تجذبها مغناطيسية خفية؛ اقترب وجه منى من وجه نوران في مسافة قريبة وساكنة تتماس فيها الانفاس ويختلط الخوف بالفضول والارتباك الداخلي. افاقت منى فجأة على رعب اللحظة، فتراجعت بخفة وقالت بصوت مرتعش:

— "مش... مش مهم اشوف... المهم... حسيتي بايه؟".

اجابت نوران بصوت يقطعه التردد:

— "مش عارفة بس حسيت جسمي كان يترعش... مش عارفه اشرح بالظبط... بس اقرب احساس للي حسيته كان... الخوف الرهيب".

التفتت منى بسرعة لتجد اطراف نوران، ترتعش في هذه اللحظة لا نعلم هل هو من اثر اقتراب وجوههم واختلاط انفاسهم ام لتذكرها ما كان من زيدان.

ارادت منى ان تهرب من هذا الثقل النفسي الخانق، وبسرعة لتغيير دفة الحديث:

— "تعالي... تعالي اوريكي انا رسمت ايه على الحيطة... وانا لوحدي بحتة تباشير كانت مرمية في كراكيب البدروم!".

جذبت نوران بخفة نحو الجدار، فرات نوران رسما لبنت تقف وسط الحائط، وحولها اولاد كتير وبنت تانية بعيدة، واقفة لوحدها...

فقالت منى بكل فخر:

— "دي انا..... واشارة لرسم البنت الملتف حولها الاولاد".

سالتها نوران ببراءة:

— "ومعنى اللوحة دي ايه وليه كل اخوتنا جنبك هما زعلانين من البنت اللي لوحدها الناحية التانية ولا ايه؟".

توهج وجه منى بتوتر مفاجئ، وادركت انا في ورطة وانها كادت تفضح غيرتها من فاتن، فتلعثمت قائلة:

— "لا... لا دي لسه اللوحة ما كملتش... هكملها الصبح، وهرسمك... وهرسم كل اخواتنا جنب فاتن الناحية التانية...!".



وحينها علمت نورا ان البنت الوحيدة في الزاوية الاخرى من اللوحة هي فاتن لكنها لم تشك لحظة في غيرة منى من فاتن او غيرها وببراءة الاطفال قالت:

ـــ "بكرة اساعدك ونكمل اللوحة سوا؟"

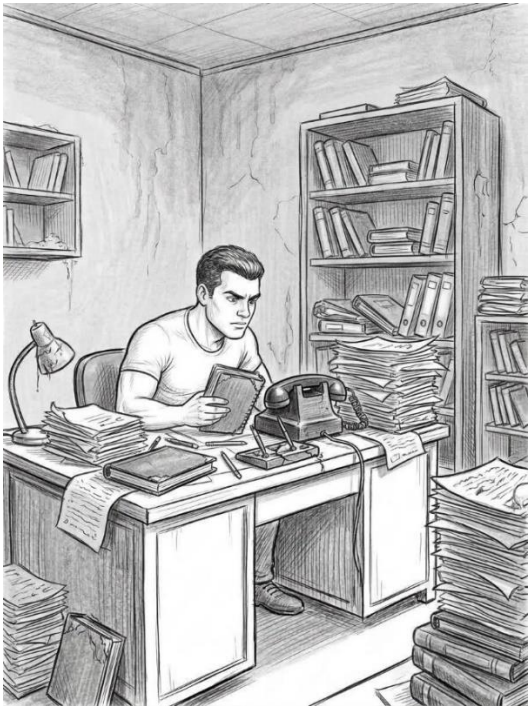
على الجانب الاخر من الدار، وبعيدا عن عيون الجائعين، دخل عبدون غرفة "البابا" المغلقة.

اغلق الباب خلفه بإحكام، ورمى نفسه على كرسي المكتب، اسند راسه بين يديه يفكر في ازمة جوع الاخوان وهو يتمتم بغضب داخلي:

"اكيد البابا اتحط في الموقف ده قبل كده... اكيد فيه حل... اكيد!".

ظل يقلب في محتويات المكتب بلا هدف، حتى وقعت عينيه على الهاتف الارضي الاسود القديم القابع في ركن مهجور على المكتب، الهاتف المنقرض العالم من حوله لم يبقَ منه سوى هذا الاثر على مكتب البابا.

لمعت في عيناه ومضة نجاة، فصرخ في نفسه: "السر فيك انت!".



فتح الباب ونادى بذكاء طفولي على اصغر اطفال الدار شهرةً بالمشاغبة ولُقِّب بـ "مظبوط":

"خد يا واد انت هنا!".

اقترب الصغير ضاحكا، فقال له عبدون بحنان الاخ الاكبر:

ـــ "انت كنت بتفضل تلعب مع البابا ٢٤ ساعة... هو البابا كان بيكلم حد في التليفون ده؟".

اجاب مظبوط ببراءة:

ـــ "يااه... طول اليوم كان بيلمع فيه وبيتكلم مع ناس كتير بس مش فاكر منهم غير عمو سعداوي، وعمو محمد الشيخ، عشان كان البابا بيخليني العب معاهم في التليفون!".

عبدون بذكاء:

ـــ "طب ما تعرفش ارقامهم؟".

مظبوط:

ـــ "يا عم ما انت في ايدك اجندة التليفون اهو... اكيد الارقام فيها! ده انت ذكي اوي يا عبدون".

ضحك عبدون وشدّه من اذنه بحب اخوي:

— "عبدون حاف كده يا ابن الايه؟! انا اكبر منك بيجي ١٥ سنة، وبعدين انا مكان البابا!".

مظبوط متبسما:

— "طب البابا كان بيلعب معايا... العب معايا دلوقتي يلا!".

شعر عبدون بلحظة ضعف انساني فاحتوى الطفل، وشدّه من ايده صارخا في وسط الساحة:

— *"يلا يا رجالة... صيادين السمك!"*.

خرج الاطفال يجرون خلفه، وعلت ضحكاتهم في ارجاء الدار وكان شيئا لم يكن.

نجح هذا الفاصل الطفولي في امتصاص غضب الصغار واعادة الثقة المؤقتة لزعيم الدار الشاب.

حل الليل وانتهي وقت اللعب، وتسلل عبدون بهدوء يدور على غرف الصغار واحدًا تلو الاخر، يطمئن على نومهم،

يضع تحت رؤوسهم ما تبقى من خبز مخزن في غرفة البابا، ويسقيهم الماء بيده،

حتى فاتن التي مر ليطمئن عليها واطمأنت هي الاخرى وهي ترى ان "اخاها الاكبر" ساهر على راحة الدار ولم ينم.

لكن عبدون نفسه لم يعرف النوم. كان يعلم ان الصباح سياتي والبطون ستصرخ مجددا.

في عتمة الغرفة، فتح اجندة البابا المتهالكة، ووضع اصبعه على اول اسم: "سعداوي".

رفع السماعة الو.

— "الو... عمو سعداوي؟".

صوت اجش من الطرف الاخر:

— "ايوه... انت مين؟".

عبدون بصوت واثق:

— "انا عبدون... من دار الامل".

سعداوي بدهشة:

— "اهلا يا حبيبي... فين البابا؟".

عبدون بلا تردد:

— "البابا سافر وغاب حبتين... وانا دراعه اليمين، انا اللي انقذت اخواتي من الجوع وبأكلهم وبشربهم لحد ما يرجع، وكلهم ادوني تفويض اعمل كل حاجة!".

سعداوي بضحكة استهتار:

— "يا خبر هي وصلت لدرجة تفويض... بس انت شكلك صغير يا ابني!".

عبدون باستعلاء:

— "لا يا عمو... انا مش بس الكبير، انا اقوى شاب ممكن تقابله في دارنا او اي دار تانية، ومعايا رجالة زي الورد وزي الجنيه الدهب بيساعدوني!".

سعداوي بصوت ودود:

— "قولي يا حبيبي... عايز منى ايه؟".

عبدون:

— "محتاجين شوية اكل وفلوس لحد ما البابا يجي...".

سعداوي باعتذار:

— "يا حبيبي من عينيّا... بس انا كل الولاد اللي عندي في الدار الاطفال اللي عندي صغيرين... هابعتلك الصبح عربية فيها شوية اكل ينفع للكبار، ومع السواق فلوس عشان تشتري الباقي".

عبدون بحيرة:

— "بس انا معرفش اشتري منين ولا اعرف حد هنا!".

سعداوي ببساطة:

— "هو انت جبت رقمي منين؟ من اجندة البابا اكيد! كلم باقي الاسماء اللي فيها، هيساعدوك طبعا... مش عشان البابا بس، كمان عشان انتم رجالة!".

عبدون:

ـــ "انا كنت ناوي اكلم عمو محمد الشيخ بعدك...".

سعداوي: "طيب كلمه بس مش دلوقتي كمان نص ساعة...، خليني اكلمه انا قبلك اشرح له الحكاية وافهمه الوضع الجديد ده عشان يساعدك اكتر!".

اغلق عبدون السماعة، واستمر ليله الطويل يتخيل ما سيرسله العم سعداوي ويخطط ماذا يطلب من العم محمد الشيخ.

وفي وسط هذا الصخب الليلي، كانت فاتن تطمئن على الصغار، وتتخيل بكر وهو يراقب من زنزانته، وتدعو لعبدون الذي انقذ الدار من الهلاك، وتدعو لبكر ان ينال الحرية قبل ان ترجع لتدخل الطفلة الصغيرة في حضنها وتنام مطمئنة.

مع بداية الصباح، غلب النوم عبدون فاستند برأسه على كرسي المكتب وغط في نوم غامض. فجأة، تعالت اصوات الطرق على الباب الخارجي:

ـــ صوت الصغار "يا عم البابا الجديد... افتح! احنا بتوع سعداوي!".

هبّ عبدون مفزوعا من مكانه، وضع كاب البابا على راسه، وشدّ تيشرته ليبرز عضلاته بزهو، ثم هرع ليفتح البوابة الكبرى.

وقف امام رجلين ضخمين نزلا من سيارة نقل كبيرة، فقالا بجدية:

ـــ "احنا جايين من طرف عمك سعداوي... باعتلك الشحنة دي والفلوس، وعايزنا ندخل نتفرج على الدار وننقل له حالتها بنفسنا!".

وبدون تردد رحب بهم عبدون، قائلا:

ـــ اتفضلوا طبعا الدار داركم

استعاد عبدون سيطرته المزيفة، وصرخ بأعلى صوت ينادي على الصغار:

ـــ "تعالوا يا ولاد... رحبوا بأصدقاء اخوكم الكبير عبدون!

عشان تعرفوا بس اني على وضعي، ومستحيل اخلي اخواتي يناموا جعانين

ـــ ده انا لو ينفع اتباع هاتباع واجبلكم اكل!".



فرح الاطفال وهللوا، وركضوا نحو الشاحنة يغنون ويحملون صناديق الطعام بفرحة غامرة نحو المطبخ.

في نفس الوقت، دخل رجالة "سعداوي" يطوفون باركان الدار؛

كان بكر من خلف قضبان البدروم لا يرى لكنه يسمع كل شيء ويشعر بكل شيء،

مضطرا لتجرع مرارة صمته، ليس فقط لانهم رجال الكفيل الذي يموّلهم، بل لا يستطيع من محبسه كشف تمثيلية عبدون امام الصغار.

سجل رجالة سعداوي كل صغيرة وكبيرة في اعينهم قبل دفاترهم

بدءا من موقع الدار المميز الذي يواجه ناصيتين،

مرورا بالأشجار المثمرة المهملة التي لو نالت قليلا من العناية لأثمرت اجمل الثمار،

وصولا الى مفاجأتهم بان "الايتام" ليسوا اطفالا صغارا، بل شباب في مقتبل العمر قادرون على الانتاج.

وسال رجال العم سعداوي احد الاطفال بلطف:

ـــ "مين اكبر واحد فيكم؟".

اجاب الطفل بفطرة:

ـــ "بكر... بس مش واقف دلوقتي ياعمو، وبصوت واطي مع سحبه صوت طفل يعتقد انه ما يقوله سر حربي:

ـــ عشان عبدون حطه في السجن!".

رحل رجالة سعداوي، ووقف عبدون في وسط الساحة منتشياً، في غرور صامت امام اخوته، كانه قهر المستحيل.

لكن هذا الزهو لم يطول؛ تقدم نحوه شابين من ايتام الدار، وقالا بنبرة تساؤل واستنكار:

ـــ "سمعنا الناس اللي كانت هنا وهما بيكلموا بعض... وبيقولوا انهم بيشحتونا الاكل! هو فيه دار تعيش على الشحاتة يا عبدون احنا رجالة ليه نمد ايدنا لغيرنا؟!

تكدست عروق جبين عبدون غضبا، ورفض ان يناقش منطقهم من الاساس، فصاح بحِدّة واستعلاء سلطوي:

ـــ "بصوا بقي... انا ماعنديش وقت اضيعه مع ناس بتعارض لأجل المعارضة!

ـــ انتوا معارضتكم هدامة... المعارض الحقيقي هو اللي يقدم مشروع قدام مشروعي!" متيجوا بالمرة مكاني وآكلو انتوا اخواتكم.

قاطعته فتاة بصوت بريء تتسأل بوجع الخوف المستمر:

ـــ "هو الناس دي ها تفضل تشحتنا على طول...ما بكرة يفلسوا؟".

ورغم ان الفتاة لم تكن تعارض، بل تسال بجهل الاطفال الباحثين عن الامان،

ورغم ان البابا قد غاب ولم يعد يهمها من يأتي مكانه طالما ان لقمة العيش مضمونة،

الا ان هوس عبدون بالسيطرة المطلقة لم يتحمل صوتا خارج السرب وصرخ بصوت ارعب الساحة:

— "محدش هيعطل مسيرتي ولا انجازاتي... خدوا التلاتة دول على البدروم حالا!".

كان قرار حبس الشابين والفتاة التي لا تطمح في شيء سوى رغيف العيش اسهل علي عبدون من قرار حبس بكر او منى او حتى نوران.

ولا ندري هل اعتاد بكر الانتهاكات؟

ام من اعتادها هم سكان الدار؟

وهل كان اصبح القمع ضروريا لسلطة عبدون؟

ام انه اصبح اجراء اعتيادي في دار كانت دار الامل.

انقض الاعوان على الايتام الثلاثة، وعلت اصوات الاحتجاج الخافتة حتى اختفت خلف الابواب الحديدية الغليظة، في البدروم، وسط صمت مطبق لا يخرقه سوى صدى اقدام عبدون وهو يسير وحيدا فوق قمة من اوهام الرماد.

الفصل السادس:
يعيش يعيش يعيش

وبفضل العم سعداوي كانت روائح اللحم المتبل تتصاعد من مطبخ الدار، حاملة معها هدنة مؤقتة مخدرة لأعصاب الايتام الذين اجتمعوا في الجنينة حول اواني الطعام؛ البطون التي كانت تئن قبل ساعات خلت واستكانت، والعيون التي كانت تترقب المجهول باتت تنظر الى "عبدون" بنظرات يملئها الانبهار والامتنان .

كان عبدون يقف بينهم منتشيا بانتصاره الاول، يتحرك بخفة طفل عثر على لعبة كبرى،

يوزع الطعام بيديه ويضحك فرحا من قلبه .

لم يكن عبدون شريرا بالمعنى التقليدي، كان يؤمن ببراءة تامة ان قوته المطلقة هي طوق النجاة الوحيد للدار، وانه حين يخطئ – ان حدث واخطأ لا سمح الله – فما ذلك الا الهام عابر لم يُفهم في وقته .

وفي وسط التجمع ومع الفرحة العابرة، والجميع يأكل من يد عبدون، وفي ذروة شعوره بانه الاب والزعيم الملهم الذي لا يُرد له امر،

جمع عبدون الايتام حوله، وبنبرة ابوية حانية تقطر ثقة، قال" :

— يا ولاد... عشان احميكم من اي بلاوي جاية في المستقبل ومن اي خطر محتمل، عايز منكم تفويض علني؛ اي تصرف خطير انا اللي هعمله لوحدي ومن غير ما ارجع لاي حد... موافقين؟ "

الكل هز راسه، وتعالت الهتافات موافقة مفوضة.

واعتبر عبدون هذا الهتاف بمثابة شيك على بياض، لم يهتم بسؤال من يعترض، ولم يفكر في البدروم وسكانه .

عبدون لا يفكر في شيء الان، مقتنع انه اصبح زعيما شرعيا ولا حاجة لاي اجراء اخر .

وبعد انتهاء هذا اليوم التاريخي الذي خرج منه الايتام ممن لا يفكرون في غير رغيف الخبز في قمة الرضاء مهللين وعبدون في قمة السعادة،

خلد الجميع لنوم عميق بعد امتلاء بطونهم، لا يشغلون انفسهم بما سيحدث بعد انتهاء طعامهم الذي منحهم اياه اصدقاء البابا عبدون، او بمعنى ادق واصدق... منحهم اياه العم سعداوي .

اما عبدون فقد عاد لغرفة البابا، عقله يقاوم جسده المنهك من قلة النوم، محدثا نفسه" :

ـــ ايوه ايوه، فين مصباحنا السحري... اجندة التليفونات بتاعتنا؟ "

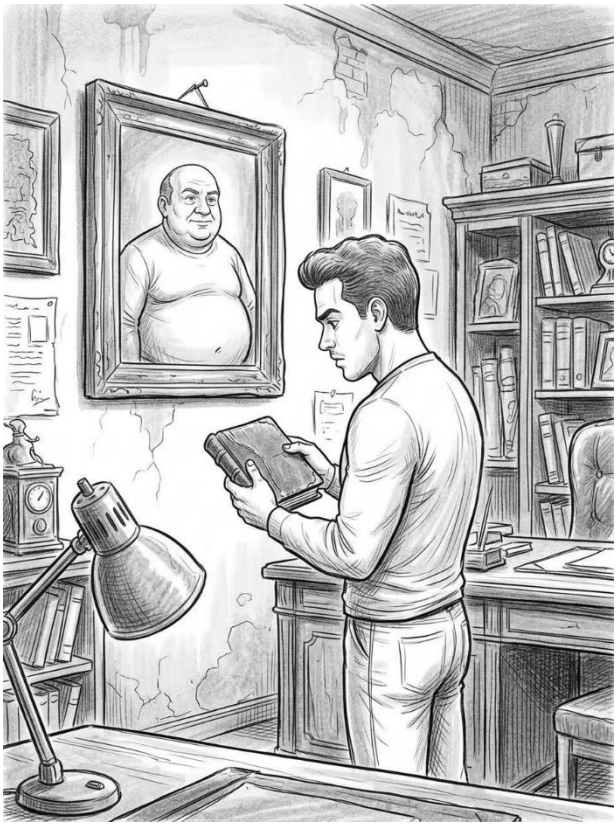
وينظر عبدون لصورة البابا الغائب على الحائط" :

ـــ اجندتك يا عم البابا هي اللي هتنقذنا، بس خلي ده سر بيني وبينك معلش؛

انا كنت مضطر اقول على رجالة سعداوي انهم صحابي انا عشان العيال يثقوا فيا،

واكيد انت مش هتزعل صح؟

ولو زعلت حتى... المهم المصلحة العامة!



وانا اوعدك مش هخلي ورقة في مكتبك هنا مش هشوفها ومش هاستفيد منها، وهاعمل كل اللي في مصلحة العيال،

وانت اكيد هتبقى فرحان، ومش مهم يقولوا دي افكار مين، المهم المصلحة العامة "!

ويعود عبدون ليجلس على كرسي البابا الذي لم يعد ينبهر به،

عقل عبدون منشغل بالسؤال الاهم :

ـــ ماذا بعد ان تنفذ معونة عم سعداوي؟

وكيف يحصل على الوجبة التالية قبل ان يفتح الجياع افواههم من جديد؟

عبدون يقلب في صفحات اجندة البابا وعقله يدور في سؤال واحد: لما الاكل ده يخلص... ها نجيب غيره منين؟

سهولة حصول عبدون على اول اعانة من العم سعداوي حالت بين عقله وبين اي طريق اخر لتوفير الموارد؛ فقط يفكر كيف يحصل على معونة جديدة ومِمَّن؟

وفي البدروم، في العتمة والرطوبة، كانت مملكة بكر تتشكل، ولكن بأسلوب خاص .

اليتيمان المعتقلان الجدد اللذان اعترضا على الشحاتة دخلا مجرورَين، و"بكر" يجلس متربعا على صندوق خشبي قديم، وعيناه تشران شرّا.

نظر بكر اليهما وبصوت محشو بالغل" :

ـــ اهلا اهلا بالرجالة "!

وبنظرات محملة بالاحتقار والشماتة، صرخ في وجهيهما بصوت هادر يغلي بالمرارة" :

ـــ حلو عبدون صح؟

ايه، مالقتوش الامان فوق على ايد سيدكم عبدون وجايين تدوروا على الامان هنا بعد ما بعتوني وصدقتوه؟!

ـــ انتوا السبب في اللي احنا فيه ده! بس خدوا بالكم، البدروم هنا مش زي دار تانية والبابا تحت غير البابا فوق

عبدون فوق، والبابا بكر تحت وزي ما قبلتم بالخضوع لعبدون، هنا كمان هتخضعوا، بس معلش مش لعبدون...

البدروم مملكة بكر، ولو الاسم تقيل عليكم مشوها (بكروون) هههه!

وزي ما قبلتم الحكم بالدراع، هنا بقي القانون الحكم بالأقدمية، والاقدمية لي وحدي! ايه ده، انا شايف في عيونكم خوف؟

تؤ تؤ تؤ تؤ، أطمنوا...

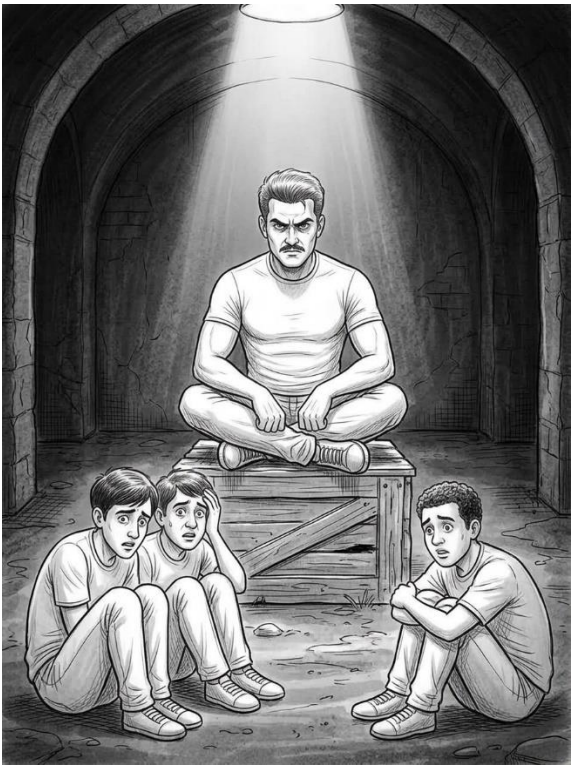
ـــ لو اللي مخوفكم الضلمة فبكرة تتعودوا وتنسوا النور،

ـــ ولو اللي مخوفكم الوحدة فبكرة كل اخواتكم اللي فوق يشرفوا هنا بتعليمات عبدون!

ـــ اما لو لا قدر الله خايفين على الدار فمتقلقوش؛ البابا راجع وسلطة عبدون هتترنح وترجع الشرعية للأخ الاكبر...

بكر... بكر... يعيش بكر!

مش انتوا هتفتوا كده لعبدون؟ احفظوا بقي عشان تهتفولي "!



لم يكن الايتام يتوقعان ما وصل اليه بكر نتيجة لحظة قهر كانا يظنانها عابرة ومؤقتة ستنتهي بعودة البابا !والدنيا قامت ومعتقدش؛ خناقة وتخوين وصوت عالٍ، وبكر يثبت سلطته على الكل عشان يقول ان القاع له سيد تاني غير اللي فوق .

وفي الجانب الاخر من البدروم، سجن النساء حيث منى ونوران،

كانت الاوضاع مستقرة، وما زلنا نعيش رحلة تهرب "منى" من "نوران" عشان ما تكملش الرسمة اللي وعدتها بيها،

فقط خشية ان تلاحظ نوران غيرة منى من فاتن .

وفجأة... صوت المفتاح يترزع في الباب الحديدي، وطفلة صغيرة من المعتقلين الجدد تدخل منكمشة على نفسها،

سجينة اليوم ما كنتش بتحلم غير بلقمة او حضن، ومش مهتمة مين يحكم الدار .

ركضت الصغيرة مباشرة نحو اقرب وجه لتختبئ في حضن صاحبته، اطمأنت واستراحت بحضن منى .الصغيرة لا تخشى شيئا الان، هل لا تدرك شيئا مما يدور حولها؟ !

وقع عين الصغيرة على لوحة منى على الحائط، وهتفت بابتسامة طفولية بريئة" :

ـــ الله... حلوة اوي الرسمة دي! مين رسمها؟ "!

وكان تلك اللوحة تطارد من رسمتها !

لكن وجدت منى في هذا السؤال مخرجا مفاجئا لترميم غرورها المكسور امام غيرتها،

وفجأة اشارت منى بأصبعها بحدة نحو نوران وقالت" :

ـــ الهانم نوران هي اللي رسمتها "!

رمقتها نوران بنظرة طويلة مليئة بالذهول والاستغراب من هذا الكذب غير المبرر،

لكن صرامة ملامح منى وحدتها جمدت الكلام في حلق نوران .

واستغلت منى هذا السكوت فزادت في عجرفتها.

قررت التخلص من هذا الرسم العبثي الى الابد، وقالت للأختين بصوت امر" :

ـــ امسحوا ده حالا... وخلي الضيفة الجديدة هي اللي ترسم، اصلا نوران ما بتعرفش ترسم اصلا "!

لكن منى بمجرد ما شافت الخوف في عيون البنات، ملامح وشها اتغيرت في لحظتها؛

فتحت ذراعيها واحتضنت الصغيرتين وقالت بصوت دافئ ومعسول" :



ـــ معلش يا بنات، انا بتعصب احيانا من غير ما اقصد... بس اكتر حاجة تضايقني ان حد اصغر مني يعصي كلامي.

اسمعوا كلامي، وهتشوفوا اجمل اخت...

لا، ده انتوا هتشوفوا (ماما منى) "!

وبذلك، سيطرت منى على سجن البنات بحضن لم يكن مصطنعا وبحيلة ناعمة .

وبينما تتشكل ممالك بكر ومنى في البدروم... كان عبدون جالسا وحيدا على كرسي البابا، يتصفح "اجندة التليفون" بفرحة طفل وجد لعبة جديدة، متناسيا تماما ان الاغراب تجولوا في كل زاوية وسجلوا تفاصيل الدار وخيراتها .

وضع يده على التليفون ليتصل بـ الرجل الذي اثنى عليه سعداوي واخبره انه في ظهره" محمد الشيخ"،"

عبدون:

ـــ الو، عم محمد الشيخ ".

صوت الطرف التاني ماكر وثقيل" :

ـــمين معايا؟"

عبدون:

ـــ " انا بكلم حضرتك من دار الامل... عم سعداوي... ".

وقبل ان يكمل، يقاطعه محمد الشيخ" :

ـــ اهلا اهلا يابطل! ازيك يا عبدون؟

عمك سعداوي كلمني وحكالي عنك وعن وضع الدار وعن غياب البابا، ويا حبيبي متقلقش خالص كلنا في ظهرك،

انت ما تعرفش البابا بتاعكم خيره علينا كلنا من سنين ربنا يجعه بالسلامة!

خد بالك يعابدون الدار اللي تحت ايدك دي كنز كبير كلها خير، بس محتاجة اللي يعرف يديرها... وانت قدها يا عوبد "!

عبدون مستبشرا وفرحا بهذه البداية" :

ـــ شكرا عمو محمد، بس انا كنت محتاج شوية حاجات، وعم سعداوي قالي اطلبها منك، عشان الدار اللي عنده كل اللي فيها رضع واطفال، واحتياجات الشباب عندنا مختلفة ".

محمد الشيخ مقاطعا" :

ـــ لا يا عبدون يا ابني مش عنده، بس مفيش ولا دار في المنطقة فيها شباب زي اللي عندك، كلنا حالنا من حال عمك سعداوي، هو احنا لو كان عندنا رجالة جامدين زيّك كان ده بقي حالنا؟ "!

عبدون باستغراب وقلق" :

ـــ ماله حالكم يا عم محمد؟ ده انا متخيل انكم احسن مننا وعندكم كل حاجة "!

محمد الشيخ بمكر يكاد يتجسد ليتسلل من سماعة التليفون" :

ـــ احنا فعلا عندنا فلوس واكل كتير وكل اللي تحلم بيه، بس ما عندناش شباب زيّك تحمي... ولا دار في المنطقة

وغصب عننا بنجيب جاردات يحمونا وبيحلبونا فلوس "!

عبدون" :

ـــ يا عم محمد، كلنا ولادكم وشبابنا جاهزين يحموكم لو حصل اي خطر، هو بس مسافة السكة ".

محمد الشيخ" :

ـــ قدها يا عوبد، هانت قابل نتكلم في ده اكيد، بس المهم قولي دلوقتي... محتاج ايه للدار عندك؟ "

عبدون" :

ـــ عم سعداوي بعتلنا اكل، واخواتي اكلوا نصفه في اول يوم عشان كلنا كنا جعانين من بدري اوي حتى من قبل البابا ما يمشي،

ولحظة سكون بسطيه

محمد الشيخ:

ـــ مممممممـ

استكمل عبدون كلامه:

انا بس خايف الاكل يخلص واخواتي يجوعوا تاني انت متعرفش احنا عددنا كبير ازاي،

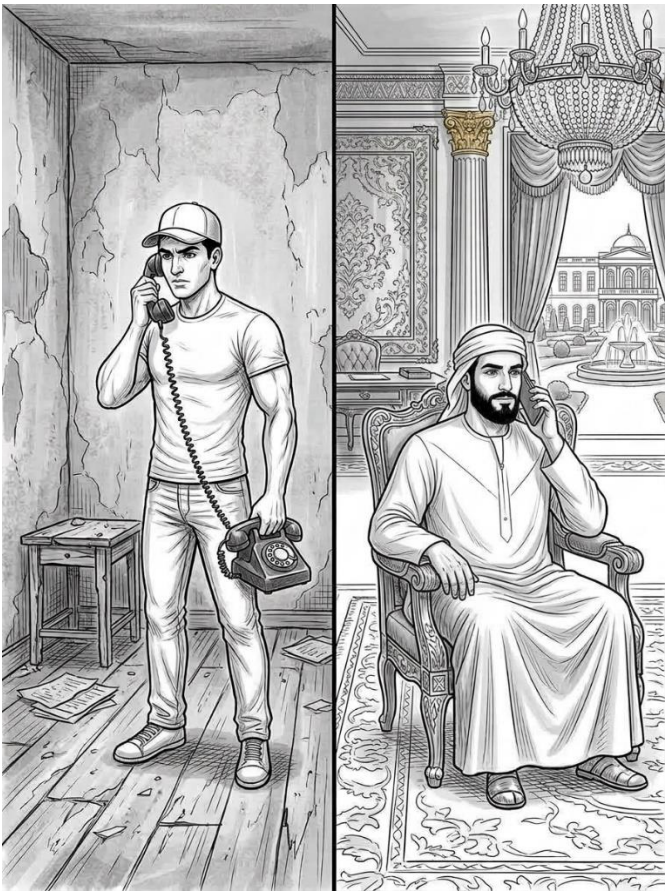
واما الاكل يخلص ها نبقى في نفس المشكلة تاني ومش عارف اتصرف ".

محمد الشيخ" :

ـــ متقلقش يا عبده! قولت لك كلنا في ضهرك

والصبح يبقى عندك عربية اكل تاني وثالث لحد ما تقف على رجليك،

انا عايز الولاد يأكلوا ويهمني منظرك قدامهم، مينفعش يجوعوا وهو بيحكمهم واحد قوي زيّك ".



عبدون" ـــ :طب اطمع شوية كمان يا عم محمد؟ "

محمد الشيخ" ـــ :اطمع يا سيدي "!

عبدون" ـــ :انابيب الغاز لو خلصت مش هانعرف نعمل اي حاجة في الدار، وانا معايا فلوس كنت واخدها من العم سعداوي بس مش عارف اجيب انابيب منين ".

محمد الشيخ" :

ـــ اخ! ، دي بقى اللي بجد مشكلة،

بس كل حاجة ولها حل ياعبده ".

عبدون" :

ـــانا مستعد لاي حاجة عشان نحل المشكلة دي ".

محمد الشيخ" :

ـــاسمع يا عبده... الاول انا عمال ادلع فيك مرة يا عبده ومرة يا عوبد، انت ليه بتكبرنا؟

انا مش عجوز اوى كده، اعتبرنا اشقاء!

وبيني وبينك اسم محمد ده تقيل على قلبي، وممكن بينا وبين بعض كده تناديني باسم الدلع اللي بحبه؛ قولي (شيخون)،

لكن قدام الولاد طبعا تقولي (عمو محمد – الشيخ محمد – عمو الشيخ) ... الاسم اللي عجبك اي حاجة غير شيخون اتفقنا؟ "

رد عبدون بعفوية تامة" :

— محمد عليه الصلاة والسلام! ماشي يا شيخون ".

شيخون كاد يشرق وجهه من الضحك، ورجع قال بجدية :

"بص يا بطل، الغاز والبوتاجاز واي نوع وقود واي سلاح...

كلهم مفاتيحهم عند واحد بلطجي قريب منك، كده كده لازم تتعرف عليه، المفروض اصلا انه من ولاد عم البابا اللي اختفي

هو يعرفك كويس عشان هو متابع كل حاجة بتحصل في المنطقة كلها لحظة بلحظة،

بس ده ماينفعش تكلمه، هاخليكم تتقابلوا ولو من غير ما حد يعرف وتنسقوا كل حاجة،

وهابعتلك الصبح الاكل اللي اتفقنا عليه.

وصحيح كنت هانسي، عايزك تشد على الشباب عندك، المنطقة فيها لصوص وشبابك لازم يكونوا رجالة عشان يحموا الدار عندكم وعندنا...

ده غير صحيح، الشجر اللي عندك في الدار ده جميل اوي وبيطلع خير كتير وعمك سعداوي قالي انه مهمل خالص محتاج سماد، هابعتلك الصبح عربية صغيرة فيها حاجات تعالج الشجر وتطلع خيراته،

لكن اول قطفة طبعا من نصيبي زي ما كان البابا بيعمل.

يلا سلام دلوقتي عشان الحق اخلي الشغالين يجهزوا كل حاجة عشان توصلك في ميعادها ".

قفل عبدون المكالمة وهو حاسس بانتفاخ الزعيم؛ حكمه بقي امان!

والدار كلها نايمة – بين سطح مخدوع باحلام الزعامة، وبدروم بيولع بالحقد والغيرة والخباثة – في انتظار بكرة اللي اكيد شايل في بطنه بلاوي اكتر .

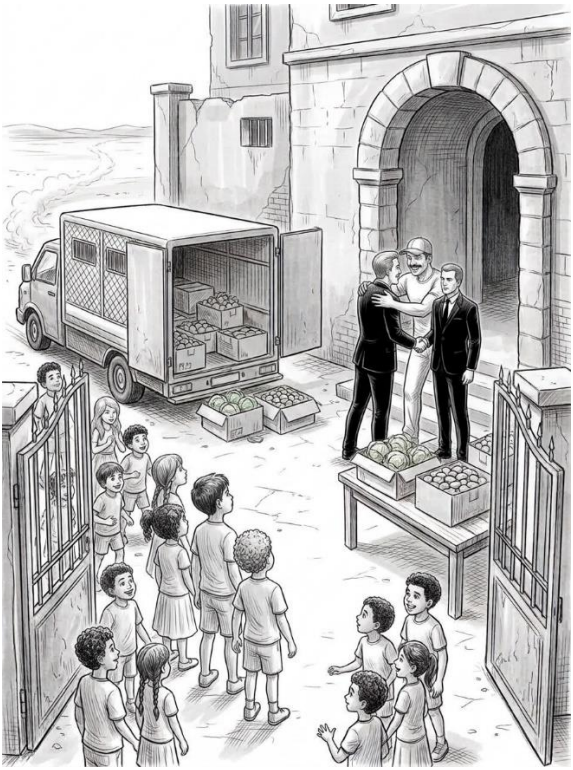
الفصل السابع:
سينا وسونيا

فتحت الشمس عيونها على ايقاع الدق المتلاحق نفسه؛ دقات ثابتة ومألوفة تضرب باب غرفة البابا، دقات تذكّر الجميع بصباح فائت حين هبطت عربية اعانات سعداوي على الدار.

هبّ عبدون بذات اللهفة القديمة، ولكن الواقفين على العتبة لم يكونوا رجال سعداوي؛ اليوم يستقبل الدار وفد رجال "محمد الشيخ"، يتقدمهم مندوب بملامح حادة مراوغة وعينين تطفحان بالثقة، تقف خلفهم عربة محملة بالخيرات.

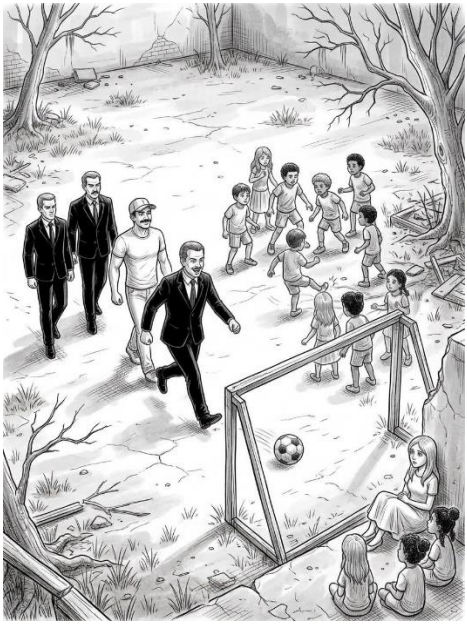
المشهد هذه المرة كان اكثر وضوحا؛ فلم يكن مجرد طعام، بل كان صك الولاء الجديد يُطبع علانية على باب الدار امام اعين جميع الصغار.

استقبلهم عبدون بلا تردد، دون حتى ذلك التبرير الواهي الذي اختلقه سابقا؛ فتح لهم ذراعيه بالأحضان الحارة والترحيب المبالغ فيه، ليتولى الضيوف بأنفسهم الكذب هذه المرة بادعاء انهم اصدقاء عبدون للتغطية عليه ومجاملته امام الاطفال الذين تجمهروا فرحين بالمعونة الجديدة.



وفي خضم الصخب، وبينما كان رجال شيخون يتجولون في بهو الدار يوزعون الابتسامات الصفراء والاشارات والسلامات الباهتة على ايتام الدار، انطلقت كرة طائشة من اقدام الصغار لتستقر قرب احد رجال شيخون.

استلمها الرجل برشاقة محترف، وراوغ بها في مساحة ضيقة قبل ان يسددها بقوة نحو المرمى، لتسجل هدفا وتصطدم الكرة بقوة في وجه فاتن وهي جالسة خلف المرمى في ركنها الصامت.



خرج سعيد من مقره الدائم داخل سيارة البابا قرب الباب، وانفجر صوته حادا يشق صمت المكان:

ـــ"انت بتعمل ايه يا بني ادم؟!"

تخشب عبدون خوفا من ان تبدو مهابته مهزوزة امام ضيوفه الجدد، فوجه غضبه بالكامل نحو اخيه سعيد زاعرا فيه:

ـــ صوتك ميعلاش يا سعيد، عيب... احترم وجودي!"

لكن سعيدا لم يسخر هذه المرة، بل وقف امامه بمرارة وصوت يقطر وجعا:

ـــ "بدل ما تزعق في اخوك اللي خايف على البنات، زعق في الغريب اللي خبط اخواتك البنات!"

تجاوزه عبدون ببرود مقيت وردّ بفظاظة:

ـــ"غريب مين؟ دول مش غُرب، دول اشقاؤنا!"

سعيد بصدمة لم تُخفها سخريته المعهودة:

ـــ"يا عم مش غُرب؟! بس دي فاتن... عارف يعني ايه فاتن؟ عارف يعني ايه فاتن؟!"

هنا فقد عبدون اخر ذرة من اتزانه، وقال بصوت هادئ:

ـــ"تصدق يا سعيد... عقابا ليك، من دلوقتي لبكرة الصبح انت هتبات في البدروم، واما تطلع ماتاكلش بقي من اكل الاغراب الوحشين دول!"

وكان الاطفال قد سُلبَت ارادتهم تماما؛ اما بالترهيب بعد حبس الكبار او بالترغيب بعد ان شاهدوا الاعانات

وتحولوا الى ظلال تتحرك بأمر الصراخ، وهجم الصغار بلا تفكير ولا توجيه ولا تكليف، وسارعوا بتكتيف سعيد وجره نحو البدروم بلا شفقة.

اما فاتن، فوقفت تتابع المشهد بذهول وعيون تدمع بصمت، عاجزة عن استيعاب كيف تحول الخوف على كرامتها وعلى اخوتها الى مساومة رخيصة على مائدة السلطة،

وكيف تحول الحديث من "كيف اصيبت فاتن؟" الى "هل هم اغراب ام اشقاء؟".

كسر عبدون ثقل اللحظة بضحكة صفراء وهو يلتفت لضيوفه:

—"يلا يا بهوات... حياكم الله، ده موقف عادي بيحصل في كل حتة، ودول شوية عيال ميعرفوش يعني ايه مسؤولية!" ويضحك ويضحكون.

وذات الرجل محرز الهدف في وجه فاتن يجد كرة بلاستيكية اخرى على يساره، يلتقطها وبذات الاحتراف يضربها بخفة ناحية الطفل الذي لاعبه في المرة الاولى...

ولكن الطفل هذه المرة اهمل الكرة واخرج لسانه تعبيرا عن غضبه لـ "لاعب شيخون المحترف" صديق عبدون، او بالأحرى رجل شيخون المتسلط.

وهو يخفي الاحراج وراء ملامحه الحادة وجه رجل شيخون حديثه لعبدون:

ـــ"ايه يا عم، مش هاتشربنا حاجة في مكتبك يا مدير ولا ايه؟"

يدخل رجال شيخون مكتب البابا للمرة الاولى، يقول احدهم:

ـــ"انا قلت نشرب معاك حاجة ساقعة على ما عربية السماد توصل، زمانها على وصول، هما كانوا بيجهزوها واحنا بنتحرك من هناك."

عبدون:

ـــ"ده شرف كبير ليّا والله."

رجل شيخون:

ـــ"هو الواد اللي كان بيتخانق بره ده ايه قصته؟"

عبدون مرتبكا:

ـــ"سعيد ده عيل تافه وعامل فاهم في كل حاجة، وانا لو عليّ كنت رميته في البدروم،

لكن هاعمل ايه العيال بتحبه ووجوده بره البدروم عواقبه اقل من لو حبسته عشان العيال مش ها تسكت...

بس متقلقوش، انا دلوقتي بكون اذرع ليّا من خلالها هاقدر اسيطر على كل حاجة،

وبرضوا من خلالها هالمع اللي معايا وهاشوه اللي ضدي، متقلقوش عبدون على وضعه برضوا."

رجل شيخون الاخر:

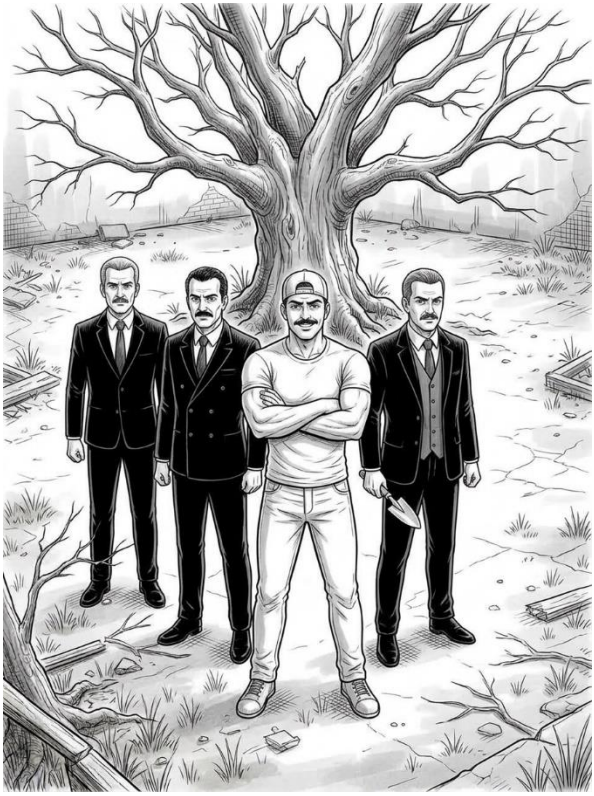
ـــ"طيب، سامع صوت عربية برة بتزمر على الباب، تقريبا عربية السماد وصلت، تعال نشوفها."

يخرج الجميع ليجدوا السماد في انتظارهم.

رجل شيخون بصوت عالٍ:

ـــ"يا عبدون بيه، عمك محمد الشيخ هيفرح اوي لو شاف صورة جماعية لينا احنا الثلاثة واحنا بنزرع البذرة الاولى هاينبسط منك اوي،

واهو تعلقها عندك وتفتكرنا دايما وتفتكر وعد اول قطفة من خير جنينتكم هههههه!" ..... ويحصل الغرباء على الصورة ويرحلون.



وفي الاسفل، حيث عتمة البدروم، كان قد دخل سعيد محاطا بحراس عبدون.

استقبله بكر بملامح تعلوها الكبرياء والتعالي، محاولا فرض هيبته كزعيم للقاع:

بكر:

ـــ"اهلا يا سعيد، انت شرفت."

سعيد:

ـــ"في ايه يا ابني؟ انت اتجننت تحت هنا ولا ايه؟ انت مالك بتتكلم زي المعلمين في المذبح كده؟"

جذبه بكر اليه هامسا بغيظ:

ـــ"يا ابني احترمني.... انا الكبير هنا وليا هيبة"

ثم يستكمل بكر كلامه بصوت عالٍ:

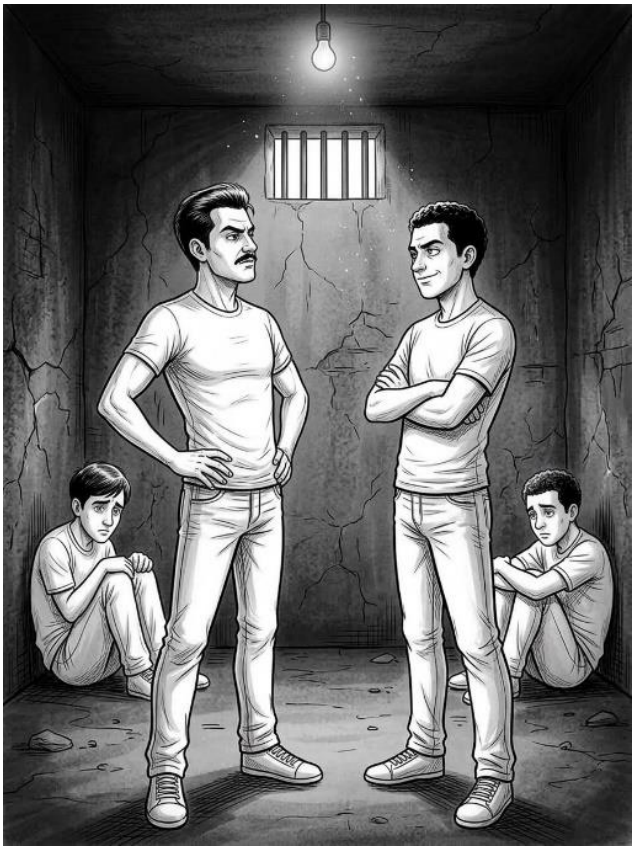
ـــ "طمني يا سعيد على اخواتك فوق، انا عارف انهم متبهدلين

بس انا خارج من هنا قريب اوي وهاخرجك معايا واخد حقك وحق كل اخواتك من عبدون الظالم ده،

اللي عامل فيها راجل وهو مفيش فيه نفخة!"

ـــ ثم يعود ليهمس لسعيد:

"بس لازم تكبرني قدام العيال الصغار اللي هنا دول، وبكرة انا احكم الدار وانت من بعدي، بس احترمني وكبرني عشان نخلص من عبدون!"



ابتسم سعيد ببرود واجابه بسخرية وبلا اكتراث:

ـــ"ماشي يا عم الهيبة، بس خلي عنك.... انا محبوس ليلة واحدة ومش محتاج حد يخرجني.

وتصدق بالله؟ الواد عبدون ده عمل معايا واجب كبير!"

نظر اليه بكر والمعتقلون الاخرون باستغراب ودهشة ممزوجين بالفضول، فاكمل سعيد بعبثية واعية:

ـــ"اصل انا لو كنت فضلت بره على طول، مكنتش هاسكت على اي ظلم وكنت ها حارب عشان تخرج يا بكر انت وكل المعتقلين....

يتنهد ويستكمل سعيد:

ـــ لكن دلوقتي عرفت انه مبقت تفرق سينا من سونيا، وعبدون هو بكرون، واي حد غيرهم يقعد على كرسي سلطة هايبقى (اووون) زيكم،

وانا الحقيقة مش عجباني الحدوتة دي ومش هناضل عشان حد ميستاهلش، واسم سعيد حلو مش هابقى مبسوط لو في يوم بقيت سعدون.... انا هاقضي ليلتي دي نوم، والصبح مفارق!"

لم يتقبل بكر هذا التمرد المبكر في مملكتك، وقال بثقة شديدة:

—"لا لا لا حاسب بس.... ليلة، ليلتين، عشرة.... مش فارق، والله لو دقيقة واحدة هتقضيها بقوانين بكر!

وفي قوانين بكر، المستجد اللي زيك يبات عند الدورة (واشار الى الحمام)،

وكمان ملكش غير شبر وقبضة تنام وتقعد وتقف وتتقلب، اعمل اللي انت عايزة في مملكتك الشبر والقبضة."

وفي الاعلى، كان عبدون قد انهى لقاءه واستراح،

وغباء عبدون لم يتوقف؛ فبمجرد رحيل رجال شيخون ركض مسرعا نحو اخوته

وموجها حديثه نحو من قبضوا على سعيد:

ـــ"قولولي عملتوا ايه في الظريف اللي اسمه سعيد؟"

يرد احد الايتام:

ـــ"نزلناه البدروم عند بكر."

عبدون غاضبا:

ـــ"يا اذكياء، هو انا لازم اقول كل حاجة بنفسي؟! انتوا كده بتحطوا البنزين جنب النار، سعيد ميدخلش مع بكر!"

يرد يتيم اخر:

ـــ"يعني ندخله عند منى؟" (بسخرية).

عبدون بعصبية:

ـــ"ولا عند منى طبعا!"

اليتيم مرة اخرى:

ـــ"ما هو البدروم مفيش فيه غير طرقة مزنوقة وعنبرين، واحد بتاع بكر والولاد، وواحد فيه منى والبنات."

عبدون بغباء تلمع عيناه ويقول لهم:

ـــ"يبات في الطرقة المزنوقة دي، وهي ليلة واحدة يعني مش حكاية."

وينزل رجال عبدون البدروم ليجدوا سعيد يحاول النوم في الشبر والقبضة:

السجان:

ـــ"يا سعيد...."

سعيد (ساخرا كعادته):

ـــ"حاضر يا فندم.... ايه ابانا الذي في السطح عفا عني؟!"

السجان:

ـــ"لا، وانت الصادق، هو عايز يحجّم شرور بكر فقال نعزلك عنه، وبالمرة عقابك يزيد.... انت هاتتحبس انفرادي في الطرقة."

سعيد:

ـــ"يا عم اهو احسن من الشبر والقبضة، انا هاقضي ليلة كاملة ترييض... شكرا يا عم عبدون والله، ده كرم كبير والله!"

وفي الطرقة، سعيد يقترب من نظارة باب سجن النساء، وبخطوات هادئة يدق بخفة على الباب ويختبئ سريعا.

الوضع بالنسبة للسجينات يبدو غريبا؛ فلم يخطئ يوما عبدون او اي من رجاله ليتعلموا معنى الخصوصية او حرمة اي شيء،

ولا تتذكر البنات ان احدا من عبدون ورجاله قد دق يوما على باب قبل دخوله، لا الان ولا حتى ايام البابا الغائب.

نوران بقليل من الخوف:

ـــ"مين؟"

سعيد (ما زال يخفي نفسه):

ـــ"انا بابا نويل، او اقولكم انا عفريت المصباح السحري.... بس انا مش معايا هدايا، ولا انا كعفريت المصباح اعرف احقق اماني عشان انا هنا بتعاقب.... عبدون حبسني."

البنات بزهق:

ـــ"ماشي يا ابو دم خفيف، يلا يا عم العفريت بالسلامة بقي عشان هاننام عندنا مدرسة بدري."

سعيد (وقبل ان يكملوا اخر كلمة يقفز امام النظارة):

ـــ"بخ!"

البنات في قمة الفرحة واللهفة:

ـــ"سعيييييد! وحشتنا اوي."

سعيد:

ـــ"يلا بسرعة طمنوني عليكم، انا هنا اعارة كام ساعة وخارج."

البنات تضحك:

ـــ"سيبك مننا احنا، انت وحشتنا... طمنا عليك وعلى اخواتنا."

سعيد:

ـــ"اخواتكم كلهم بخير، عايشين في نعيم عبدون الوهمي..... طمنوني اخباركم انتم ايه؟"

(ويستكمل سعيد كلامه):

ـــ"شوفتوا صح اللي عامله بكر ده؟ راحت منه خالص بقي عبدون في نفسه اوى!"

البنات ينظرن لبعضهن البعض، نوران تشير له على منى وتقول بحرص وصوت هامس:

ـــ" لا متقلقش ما هو احنا عندنا منى هنا اوسخ."

سعيد ضاحكا:

ـــ"مممم... سعد زغلول قالها زمان:

مفيش فايدة!"

البنات:

ـــ"سيبك من سعد باشا ووفده دلوقتي، قولنا عبدون حبسك ليه؟"

سعيد بمنتهى الجدية:

ـــ"شوفوا يا قمرات، انا كل يوم كنت بصحي من النوم بقول

- استغفر الله العظيم من باب الاحتياط -

وامبارح بقي نسيت اقولها فربنا عاقبني وسلط عليا عبدون قال حاجة معجبتنيش....

وكاي مصري عادي عنده ويا شقاه خصومة، قمت سبيت للحكومة!

ـــ حد فيكم يعرف مين اللي قال بيت الشعر ده؟"

البنات:

ـــ"سعيد هيفضل طول عمره سعيد!

لا يا سيدي منعرفش، قولنا انت مين؟"

سعيد:

ـــ"لا ما هو انا بسأل بجد،

اصل انا مش فاكر مين، وعشان كده عبدون باعتني اقضي ليلة هنا يمكن افتكر

واول ما وصلت.... يا بنات ودخلوني عند بكر، وتقريبا كده عبدون حس ان ده خطر ابقى مع بكر، فقال يفصلنا عن بعض فخرجوني انام هنا في الطرقة."

"يلا تصبحوا على خير بقي يا بنات.... بحبكم."

البنات:

ـــ"بنحبك يا سعيد!"

ويعود البنات للنوم في المكان المخصص حسب تعليمات منى.

ويبدا سعيد في النوم، لكن تطارده اسئلة وافكار قبل النوم، لم نسمع سؤاله لنفسه، لكننا سمعنا همهماته يقول لنفسه:

ـــ"يااااه... عبدون ده اغبى بني ادم في العالم، يعني عايز يفصلني عن بكر يحطني في طرقة اقدر من خلالها اوصل لبكر ولمني ولكل المعتقلين...

انا اما اطلع من هنا مش هعارض عبدون في حاجة... مش خوف لاء، بس الدماغ العبقرية اللي عند عبدون دي نسيبها تشتغل وهي هاتغرق نفسها بنفسها." ويسرح ويدخل في نوم عميق.

وفي الاعلى، رن جرس تليفون غرفة البابا.

الاخ الاصغر مضبوط:

ـــ"عاااااااااااااااابدووووون! تليفوني بيرن ترتن ترن!"

عبدون هرع مسرعا وبلهفة التقط السماعة:

ـــ"الو.... مين معايا؟"

المتصل:

ـــ"انا عمك سعداوي يا بطل."

عبدون:

ـــ"ازيك يا عمو... شكرا اوي انك كلمت عم شيخون عني!"

سعداوي:

ـــ"الله الله! هو انت وصلت لشيخون؟! ده انتم بقيتوا صحاب على الاخر... محدش يعرف الاسم ده كتير!"

عبدون بصوت يبدو عليه التردد:

ـــ"يا نهار ازرق... انا نسيت وقلت الاسم قدامك! والنبي ما تقوله اني قلتلك!"

سعداوي:

ـــ"متقلقش يا حبيبي.... انا بتصل اطمن عليك واعرف ايه حكاية الواد اللي اسمه سعيد ده؟"

عبدون في نفسه:

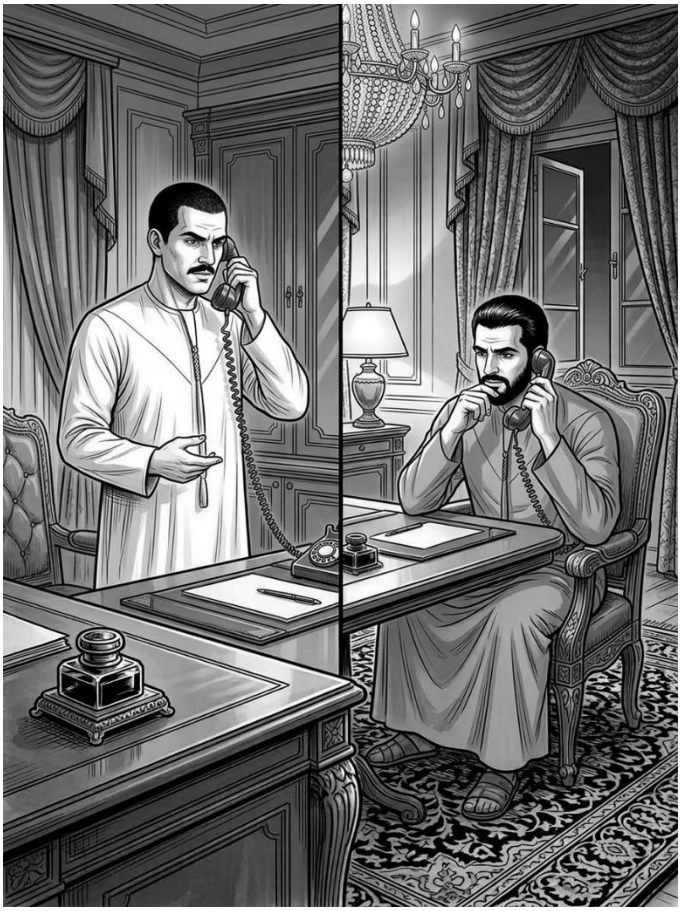
ـــ"هو لحق يقوله؟ ده الناس لسه ماشيين!" وحاول التماسك ورد بتوتر حقيقي:

ـــ"لا متقلقش يا مولانا.... كله تحت السيطرة.... المهم يا عمو، هانعمل ايه في موضوع انابيب الغاز؟"

سعداوي:

ـــ"نعمل ايه... نعمل ايه... طب اقفل يا عبدون، هتصرف وارجع اكلمك تاني."

واغلق سعداوي الخط واتصل بالعم محمد شيخون.



سعداوي (من غير الو):

ـــ"الواد استوى على الاخر يا شيخون."

شيخون:

ـــ"لا سيبه حبه.... الواد لازم يتسعر ومهم نضغط عليه عشان يفضل محتاجنا، ولازم نركبه على الكل... لا سعيد ولا بكر ولا غيرهم."

(ويستكمل شيخون):

ـــ"الواد عبدون هايبقى راجلنا، ولو سبنا حد من الشباب يقربله، العيال في الدار عندك ولا عندي هايفكروا ان اي عيل يعرف يدير اي دار، وانت عارف الباقي بقى...

من الاخر، لمّ كل الايتام عندي وعندك يشوفوا بعينهم ان العيال الصغيرة بيضيعوا دار الامل، ولولا وقفتنا احنا الكبار مع الدار كان الدار هاتقع."

سعداوي:

ـــ"بس خد بالك يا شيخون من حاجة مهمة، مينفعش ينتشر اخبار ان عبدون بيحبس اخواته."

شيخون:

ـــ"يا عم سيبها تنتشر عادي، ولما حد يتكلم نبقى نقفله احنا ونخلص اي حكايات تحصل من برة برة ومن تحت لتحت...

ما هي طول عمرها كانت ماشية كده والكل عامل عبيط!

انت يابني لسه شاب متعرفش انها دايرة بنفس السياسة دي من اكتر من ٣٠ سنة، من اول حكم البابا اللي اتبخر ده،

ياسلام على البابا كان راجل قديم وعارف الدنيا ماشية ازاي وظابط الاداء والله... يلا، ايام بقي."

سعداوي:

ـــ"معاك طبعا... بس تفتكر عبدون ده ممكن نعتمد عليه عبدون ده وهو مصانش اول سر نقوله ليه وغلط قدامي من اول مكالمة وقالي اسمك شيخون؟"

شيخون:

ـــ"يا سعداوي انت لسه شاب صغير...

احكي لأبوك كدة اللي حصل واساله وهو هيقولك ان عبدون مغلطش ولا حاجة، وكان قاصد يستعرض قدامك شكل علاقته بيا."

سعداوي:

ـــ"معاك، بس هو ده حاجة كويسة ولا وحشة؟"

شيخون:

ـــ"طبعا دي كويسة اوي كمان!

ده كده البرنس بيقولك من تحت لتحت: انا خلاص منكم وعليكم... ومش بعيد كان مستني انت كمان تقوله يدلعك ويناديك يا سعداوي.

بس احنا مش هانعمل كده يا سعداوي الله يكرمك، خلي كل واحد فينا يرمى طعم مختلف...، انت صنارة انا شبكة،

انا اصطاد النهاردة بطعم دود بكرة انت تصطاد بجمبري ونبقى نبدل الادوار كل حبة لما نحتاج ده.

والمهم دلوقتي انا مظبط معاه يتعرف على ولاد عمنا عشان يجيبوله الغاز،

والواد عامل ناصح وضارب على الفلوس اللي جاتله مع اول شحنة تبرعات بعتها انت، سيبه يضرب على الفلوس دي...

وخلينا انا اعمل معرفش حاجة عنها ونديله غيرها يشتري بها من ولاد عمه انابيب الغاز والبوتاجاز،

وكل ما يضرب على فلوس اعمل عبيط، وبعدين ها فهمك ليه...

وصحيح سيبه يومين لا تكلمه ولا ترد على تليفوناته، وهاكلمه انا اقوله جايلك الدار بس بعد ما يكون استوى،

وهناك هتصرف في كل حاجة... مش هقولك تاني يا سعداوي، لازم يبقى مستوي على الاخر قبل اول زيارة رسمية."

سعداوي:

ـــ"طب عشان انا منلخبطش حاجة وعشان ابقى فاهم، عايزه مستوي لحد فين؟"

شيخون:

ـــ"بص يا سيدي ، احنا مصلحتنا مع الواد ده، بس برضوا مصلحتنا ميبقاش في حد في المنطقة كلها قوي ومش تحت سيطرتنا...

فاحنا هنركب الواد ده فوق اخوته ونغرقه خيرات وفلوس، وبعدين لما يبقى تحت ايدنا واحنا ظهره مش اخواته، هانتعامل بطريقة منسبهوش يموت ونلحقه في كل ازمة، بس برضوا منلحقهوش لدرجة انه ميبقاش محتاجنا في المستقبل.....

ركز بقي يا سعداوي عشان نعرف نسوق."

سعداوي (مقلدا صوت عبدون في اول مكالمة معه):

ـــ"معاك يا عمو محمد الشيخ!"

اغلق الهاتف، واغلقت انوار دار الامل وبدروم دار الامل، وخلد الجميع للنوم في وقت الدار تقف فيه على حافة الانفجار، في ليلة لا ينام فيها الا من يجهل عاقبة الوهم.

الفصل الثامن:
ملكة الصحراء

في صباح اليوم التالي، فتح عبدون عينه ليجد نفسه نائما على كرسي البابا العتيق في غرفته المغلقة.

كان صوت الاطفال وهم يلعبون في ممرات الدار هو المنبه الوحيد الذي اعتاد ان يستيقظ عليه عبدون منذ ان تولى ادارة الدار.

عدّل عبدون جلسته، وطلّ برأسه من النافذة يداعب الصغار بابتسامة:

ـــ انتوا يا شياطين، الواحد ما يعرفش يغفل شوية منكم!

رد احد الاطفال بصراحة الطفولة البريئة:

ـــ ما هو انت اللي خلاص مش بتنام في العنبر معانا، وكل يوم نايم هنا. ده حتى هناك في سرير، وانت هنا بتنام قاعد على كرسي البابا!

ضحك عبدون بخفة وقال:

ـــ اولا، ده خلاص بقى الكرسي بتاعي، وحتى لو البابا رجع، مش هايقومني من عليه.

ثانيا، هو اللي يدير الدار دي يعرف ينام تاني؟

سأله الطفل بتشكك:

ـــ يعني ايه؟ هو انت مش قلت البابا راجع؟ وضربت بكر وحبسته لما قال انه ممكن ميرجعش؟

تغيرت نبرة عبدون قليلا وهو يحاول المراوغة وتدارك خطاه:

ـــ هو انا قلت انه مش راجع؟

الطفل:

ـــ ما هو انت بتقول "لو رجع"، وده معناه انه ممكن ميرجعش!

عبدون بضيق وصوت مرتفع يقطع الحديث:

ـــ بقولكم ايه، انا مش عايز لماضة... يلا العبوا برة في الجنينة، انا عندي شغل ومش فاضي دلوقتي.

خرج الصغار الى الحديقة، وعبدون يقف مترددا امام التليفون محدثا نفسه:

ـــ اكلمهم؟ مكلمهمش؟ اكلمهم.. مكلمهمش؟

وفجأة.. ما هو انابيب الغاز هاتفضي وتبقى مصيبة!

يقدم على الاتصال احيانا ويتراجع احيانا، واخيرا حسم عبدون قراره استجمع قواه واستحضر شجاعته واتصل بالعم بشيخون

ولكن .....لم يتلقي رد حاول مرارا وتكرارا فلا مجيب،

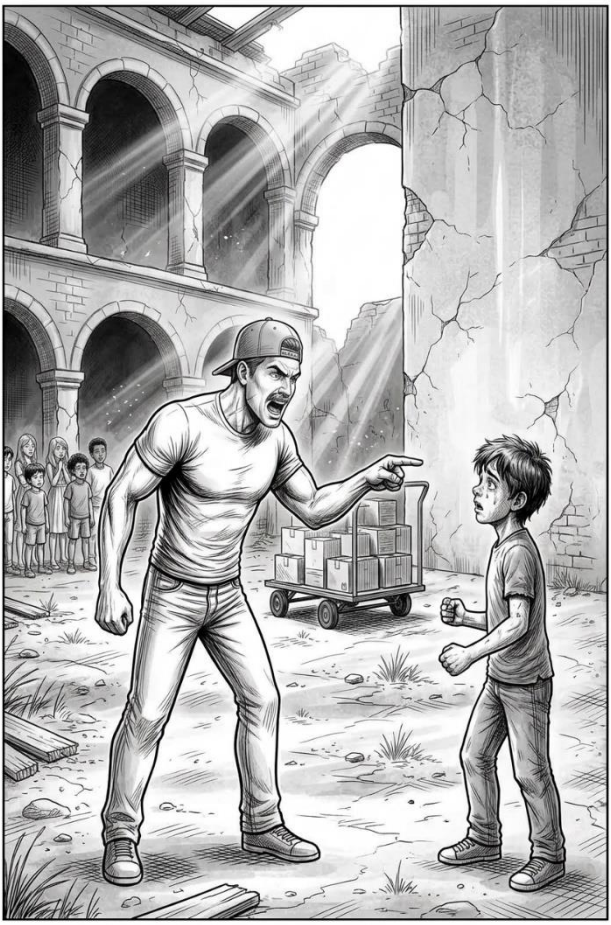
غير وجهته ليتصل بسعداوي وتكرر الامر فلا مجيب.

تسلل القلق الى نفس عبدون، فخرج لأخوته يلعب معهم محاولا اخفاء توتره، بين ضحكات الصغار.

وفي خضم التوتر، اندلع شجار بين طفلين يلعبان كرة القدم حول ما اذا كانت المخالفة ضربة جزاء ام لا.

انفجر عبدون في وجه احدهما بكل ما يحمله من قهر مكبوت:

ـــ في طفل متربى يزعق لأخوه كده؟! انت معاقب بالحبس يومين عشان تتربي، وعشان الكل يتعلم ميعملش كده تاني!



وانقض رجال عبدون علي الصغير وسط نظرات الذعر والذهول من باقي الاطفال الذين لم يفهموا سبب هذا الانفجار العصبي المفاجئ.

كانت "فاتن" وسط المراهقات تراقب ما يحدث،

احدى زميلات فاتن وبصوت خافت قالت:

ـــ يا فتون، مش ملاحظة ان عبدون بقى متغير اوي؟

اجابتها فاتن بوجع:

عندك حق، بس اللي شاغلني اكتر دلوقتي، العيل الصغير اللي اتحبس عشان بس بيلعب!

ده عيل صغير يعني ماهوش بكر ولا سعيد.. مصيبة لا تكون هي دي طريقة عبدون الجديدة مع اي حاجة مش تعجبه!

ده على كدة البابا لما يرجع هيكون الدار كلها في السجن.. ده لو السجن.. او البدروم اصلا استوعب عددنا كلنا!

ردت الفتاة بخوف:

ـــ شوفي انتي اختي الكبيرة، بس انا عندي رؤية برضه...

نسخة عبدون الجديدة اللي شفناها من شوية دي، بتقول انه لو البدروم اتملي.. هايبني بدل البدروم عشرة!

اصلا كمان مش محتاج يبني، كفاية اوي يعمل سور حوالين الدار ويحولها كلها لسجن كبير.

وضعت فاتن يدها على قلبها:

ـــ الله يسامحك انا قلبي واجعني لوحدي... وكلامك ده وجعني اكتر، ربنا يستر وان شاء الله البابا يرجع ونخلص من الكابوس ده بقي.

عاد عبدون الى مكتبه، يحاول الاتصال بشيخون وسعداوي ويمر يوم واثنين وثلاثة، ومازال عبدون يكرر الاتصال بشيخون وسعداوي ولا مجيب، والطعام يوشك على النفاذ، وانابيب البوتاجاز تقترب من الصفر.

لكن الكارثة الاكبر لم تكن في الغاز ولا الطعام، بل في ذلك الطفل الصغير صاحب ضربة الجزاء الذي انتهت عقوبة الحبس يومين التي عوقب بها، واسقطه الجميع من ذاكرتهم فظل قابع في ظلمة سجن البابا عبدون!

ومع صباح اليوم الرابع، جلس عبدون على كرسي جلبه الى الحديقة، وضعه في المكان المخصص لألعاب الاطفال يجلس وحيد بعد ان امر الاطفال بالابتعاد عن كرسيه وعن العابهم،

اعتقد الاطفال ان عبدون الظالم يجلس ليستمتع بالشمس وحده،

لكن الحقيقة ان عبدون جلس في الحديقة ليبتعد عن غرفة مكتب البابا وهاتفها الملعون الذي يذكره ان شيخون وسعداوي قد تخلوا عنه.

وبينما عبدون سارح في خيالاته كان هناك طفل صغير قادم نحوه وبجواره الصغير مظبوط

وبغير الشغف المعهود الطفل الصغير:

— يا عبدون التليفون بيرن

وقبل ان يستكمل الصغير جملته، هبّ عبدون مفزوعا كالغريق الذي القيت له طوق نجاة، وهرع نحو غرفة المكتب صارخا بلهفة:

— ايوه... مين؟

صوت الطرف التاني في المكالمة:

ـــ انا شيخون يا عبده... طمني عليك، عامل ايه؟

تنفس الصعداء، وتحولت نبرته فورا الى الخضوع:

ـــ انا خلاص بقيت كويس سعادتك... كنت قلقان انت مش بترد عليا ولا حتى سعداوي بيه!

صوت شيخون ساخرا:

ـــ ايه ده؟ ايه ده يا عوبد.... سعادتك وبيه وكلام كبير ايه هو احنا مش اشقاء وصحاب ولا ايه؟

لا.. لو كده بقي بلاش تقولي شيخون، اندهلي بالاسم اللي مش بحبه.. محمد!

رد عبدون بتملق:

ـــ عليه الصلاة والسلام... مش القصد والله يا شيخون، انا بس مش عارف ليه سايبني بقالي ٤ ايام ومحدش بيرد عليا!

شيخون:

ـــ يا عوبد... هو ٤ ايام ده كتير يا ابني؟

ده الطبيعي، انت بتدير دار عملاق، واحنا كل واحد فينا عنده مصالحه.

انت اه اخونا، بس على راي المثل بتاعكم: "اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع"،

واحنا عندنا مشاكلنا واشغلنا فيها.. ولما فضيتلك كلمتك لوحدي.

قولي الاول، كنت بتتصل كتير ليه؟

عبدون:

ـــ ما انت عارف يا شيخون موضوع انابيب الغاز، وكمان الاكل عندي على وشك يخلص!

ضحك شيخون بصوت عالي:

ـــ يا راجل! انا قلت هاتتصل تقولي انا جايلك اساعدك انت وسعداوي في المشاكل اللي عندكم!

عبدون سريعا:

ـــ انت بس تشاور وانا اجيلك جري ما انا قلتلك قبل كدة مسافة السكة!

شيخون:

ـــ لا يا عم، هجليك انا بنفسي... قولي، فاضي امتي تستقبلني عندك في الدار؟

توهج وجه عبدون بالفرحة:

ـــ دلوقتي حالا لو تحب! ايه ده.. انا لو عليا عايز استقبلك امبارح مش بكرة.

شيخون:

— طيب خلاص، اديني يومين واكلمك نضبطها.

عبدون بحزن:

— يومين... ماشي يا شيخون، ولو قدرت قبل يومين كمان في انتظارك بفارغ اصبر.

شيخون:

— طب سلام

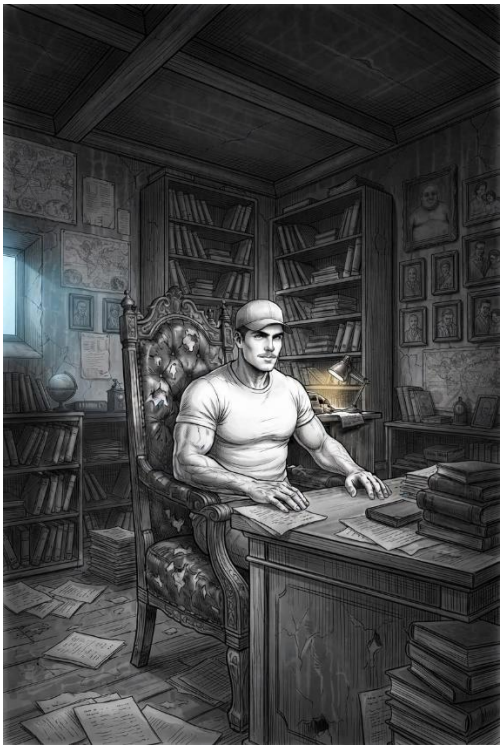
عبدون:

— طب قبل ما تقفل، طمني على سعداوي... اصل مبيردش هو كمان!

شيخون:

— لا، هو في احسن حال، هو بس بيعمل تجديدات كبيرة في الدار عنده وكان مشغول فيها... عموما انا هكلمه اخليه يتصل بيك.

وظل عبدون جالسا يراقب التليفون في انتظار مكالمة سعداوي بفارغ الصبر، حتى غلبه النعاس واغمض عينيه.



وحين افاق على رنين الهاتف، نظر من مكانه على النافذة فوجد ان ضوء الشمس قد اختفى، فعلم ان ساعات طويلة قد سرقت وهو غافل في الانتظار.

رفع السماعة بصوت متهدج:

— الو... مين

الصوت المقابل:

— سعداوي يا عبدون

عبدون:

— عم سعداوي! ياااه اخيرا يا صديقي، ده انا بحاول اكلمك بقالي كتير اوي، وشيخون قالي انك هاتكلمني وفات كتير وماتصلتش!

اتاه صوت سعداوي الرخيم:

ـــ معلش يا بطل، بس كنت بعمل تجديدات في الدار عندي شغلتني.

عبدون:

ـــ عقبالنا يارب...

سعداوي:

ـــ طيب طمني عليك يلا.

عبدون:

ـــ مش كويس والله يا سعداوي، الاكل بيخلص وانابيب البوتجاز على وشك تخلص، وشيخون وعدني يعرفني على ولاد عمّه عشان اخد منهم انابيب، وشكله نسيني وانا مرعوب!

العيال عندي لو جاعت هاتخرج تنهب المنطقة كلها!

انا خايف اقول لشيخون كده يفتكر ان انا قاصد اهدد بالفوضى لا سمح الله او انه يتخيل ان العيال الكبار الكتيييير اللي عندي مش تحت السيطرة.

سعداوي بهدوء مريب:

ـــ لا كويس انك مقولتش، اصل الكلام ده ميتفهمش غير انه تهديد... بس انا عشان بحبك، فهمت قصدك.

بعدين متقلقش، الكل عارف المخاطر اللي هتحصل لو دار الامل وقعت!

عبدون:

ـــ انا مش بس مش عايز الدار متقعش لا... انا عايز الدار تكبر عشان الفوائد اللي ها تعود على الكل لو كبرت!

سعداوي:

ـــ مممم... مفهوم، مفهوم، مفهوم... طيب قولي، اساعدك ازاي دلوقتي يا عبدون عشان تعدي الازمة؟

عبدون:

ـــ انا محتاج شوية اكل او فلوس اجيب اكل عشان اخواتي ميحسوش اني مش عارف اتصرف ولا قادر ابقى البابا!

سعداوي بدهشة مصطنعة:

ـــ فلوس؟! هو انت خلاص عرفت تشتري احتياجاتكم منين؟

عبدون:

ـــ لا... ما هو ده كان هيبقى الطلب التاني... عايزك تكلم انت شيخون يجي بسرعة، بس كأنك عملت ده من نفسك مش انا اللي قلتلك!

سعداوي:

ـــ مش سهل انت برضو يا عبدون... وعموما، انا هابعْتلك اكل وفلوس الصبح، وسيب موضوع عمك شيخون عليا... انا هاقفل معاك دلوقتي واكلمه.

اغلق عبدون التليفون، ولم يتحرك من كرسيه وهو يتخيل مشهد دخول الطعام صباحا بعد غياب اربعة ايام بلا اعانة.

وبعد الفجر مباشرة، وقبل ان تشرق الشمس، اخرج عبدون كرسيه مرة اخرى ليضعه ليس في ساحة الالعاب كالبارحة ولكن امام بوابة الدار الكبيرة في مواجهة سيارة البابا القديمة المعطلة؛ حيث المكان المفضل لسعيد.

تذكر عبدون اخيه سعيد فجأة فنادى على احد الحراس (زيدان):

ـــ يا زيدان، هو انتوا خرجتوا سعيد من السجن زي ما قلتلكم؟

زيدان:

ـــ ايوه طبعا... تاني يوم على طول يا فخامة.

عبدون:

ـــ امال مش بان ليه؟ روح اندهولي!

زيدان:

ـــ بس هو نايم يا فندم.

عبدون بعصبيه وصوت مرتفع:

اما اقول حاجة تتنفذ.. صحية ويجيلي حالا!

وبعد دقائق معدودة، حضر سعيد متثاقلا وقال:

ـــ عايز ايه يا عبدون؟

عبدون:

ـــ مختفي انت يا سعيد قولي مش باين ليه؟ ايه خرجت ومطلعلكش صوت يعني؟ ده انت طلعت خفيف سجن ليلة واحدة تعلمك الادب!

نظر سعيد لزيدان نظرة ساخرة ثم التفت لعبدون:

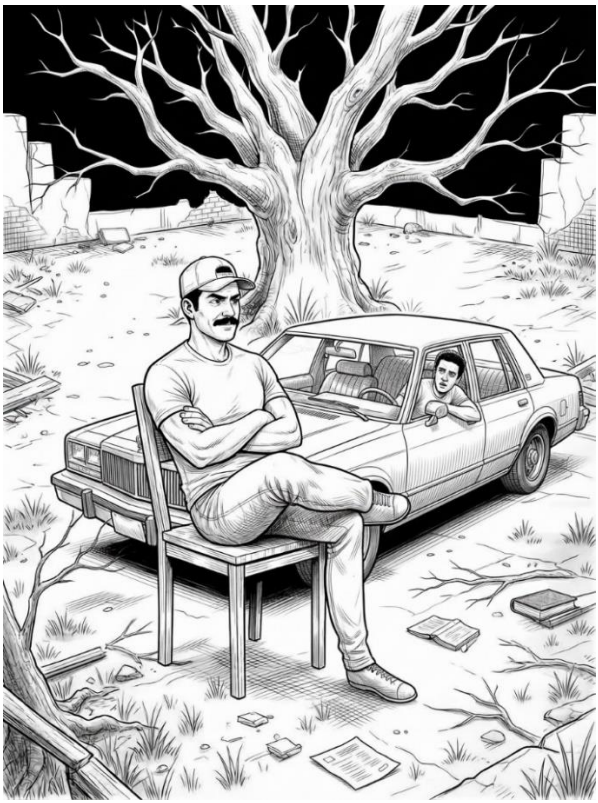
ـــ يا عبدون، فوق لنفسك... انت مين انت عشان تعلم حد حاجة؟

نظر عبدون لزيدان:

ـــ امشي انت دلوقتي وسيبلي سعيد، انا هاربيه.

التفت عبدون لسعيد بنبرة وعظيه:

— يا بني، انت اصغر مني... وانا اللي بحمي الدار دي، روح شوف المنطقة كلها خربانة ازاي حوالينا، مفيش دار واقفة على رجليها غيرنا!



ضحك سعيد باستهزاء:

ـــ انت مصدق نفسك يا عبدون يا حبيبي؟

لو مفيش دار غيرنا واقفة على رجليها، مكنتش هتلاقي حد يشحتنا الاكل اللي عمال تضحك بيه على الايتام الغلابة اللي مصدقينك!

عبدون:

ـــ هو يعني عشان في دار ولا اتنين زي بتوع شيخون ولا سعداوي واقفين على رجليهم يبقى الدنيا حلوة خلاص ؟ شوف يا عم الباقي كله خربان ازاي!

سعيد:

ـــ شمعون مين؟

عقد عبدون حاجبيه بضيق:

ـــ مش شمعون! بقولك شيخون.. ده اسم الدلع بتاع عمك محمد الشيخ!

سعيد:

ـــ بعيدا عن انه عمك انت بس الاسم ده طب وده ملفتش انتباهك لحاجة؟

عبدون:

ـــ حاجة ازاي يعني؟

سعيد مبتسما ابتسامة غير مفهومة:

ـــ لا لا لا ، متفهمنيش غلط... اقصد يعني انه سايبك تدلعه... وعموما يا عبدون، انت عندك حق، كل المنطقة خربانة ولازم نحمد ربنا على حالنا... اوعدك هاعمل ده،

بس عندي طلب: زي ما انا هبص على الوحش واحمد ربنا، وانت بص على الناس الكويسة وقول يارب نبقي زيهم مش ده دورك برضوا يا قائد؟!

واستكمل سعيد ببرود:

ـــ تسمحلي اكمل اقعدة في عربية البابا ولا ها يضايق فخامتك؟

رد عبدون بحدة:

ـــ لا، ها يضايقني... يلا على عنبرك، والكلام ده ميتحكيش للعيال الصغيرين، انت عارف اللي يضايقني بيحصله ايه... الطرقة المزنوقة بتربي!

سعيد:

لا ده انت مفهمتش حاجة من اللي قولتها بقى عموما تعليمات سعادتك يا باشا..

بس صحيح، هو انت فاكر اني اتربيت ومش بتخانق معاك عشان ليلة في السجن؟

لا والله ابدا، انت بس عملت معايا واجب من غير ما تاخد بالك!

عبدون مندهشا:

ـــ ازاي يا فيلسوف عصرك وزمانك؟

سعيد:

ـــ اصل انت من غير ما تقصد ورتني انك مش اوحش مني ولا من بكر ولا منى انت مش لا من اي حد يا عبدون... احنا كلنا شبه بعض، كلنا تربية البابا، كلنا ولاد اوسخ تجربة واوسخ مرحلة عدت علي الدار دي

مش فارقة مين بيظلم ومين بتظلم.. كلنا كده كده هاندوق من نفس الكاس..

اطمن يا عبدون، انا فقدت الشغف وهاسيبها تخرب على الاكل وانا في حالي لحد ما تتهد على دماغنا كلنا ونخص بقي...

وزي ما قلت للبنات تحت للبنات هاقولك وهاقول لاي حد.. مفيش فايدة!

ورحل سعيد، وبقي عبدون ينظر الاعانة وهو يشير لأخيه المفارق:

— يلا يا عم، هي ناقصاك انت كمان عالصبح!

وظل عبدون جالسا منتظر الاعانات بفارغ الصبر يتأمل سيارة البابا المتهالكة في صمت،

ويبدا الايتام في الاستيقاظ يخرج واحد تلو الاخر من عنابرهم ليداعبهم الاخ الاكبر والقائد والمعلم عبدون

وذهنه مشغول بالإعانات وعيناه معلقتان بالبوابة الرئيسية للدار.

واخيرا وصلت شاحنة الاعانات، وبدا الايتام بلا تعليمات في نقلها الى المطبخ كانه اصبح عملا اعتياديا.

في هذه المرة، لم يسال احد، ولم يناقش احد، ولم يفرح احد او يحزن.. كان الاطمئنان المؤقت في نفس عبدون هو التغيير الوحيد الذي احدثته الاعانة.

اقترب مندوب سعداوي هامسا لعبدون:

ـــ سمو الامير سعداوي بيقولك كلمه ضروري جدا... وبكرة جايلك شريكنا عشان يعرفك على صحابه!

ولم يهتم عبدون باي شيء مما قاله المندوب سوى جملة "شريكنا جاي بكره"، وفهم بسهولة انه يقصد "شيخون".

فرغت الشاحنة حمولتها ورحلت، فوقف عبدون في وسط الساحة وبصوت حاد:

ـــ كله يجمع هنا... وانهدولي اللي جوة كمان!

وبعد ان تجمّع الايتام، تحدث عبدون بقوة وملامح حادة:

ـــ النهاردة مفيش هزار ومفيش لعب... في شغل بس!

الدار دي لازم تبقى بتلمع، ولازم كل حاجة تمشي زي الساعة...

النوم بدري ساعتين بعد ما كله يستحمى وينظف نفسه،

والكل يلبس كويس عشان في ضيف مهم جدا جاي بكره.. هناقش معاه شراكة استراتيجية تودي الدار دي في حتة تانية زي ما وعدتكم!

ولم يفهم الاطفال شيئا سوى انهم سيحرمون من اللعب،

ولم يرد أيا من الايتام كلمة على عبدون وتحولت الدار الى خلية نحل تنفذ التعليمات بغير فهم او حتى فضول يدفعهم لمعرفة اسم الضيف المنتظر

وفي الثامنة مساءً الجميع في هدوء تام قد خلدوا في نوم يفتقد الاحلام.

وفي صباح اليوم التالي، كان الجميع جاهزا من الشروق بالملابس المهندمة حسب التعليمات.

وما هي الا لحظات حتى اقترب اسطول من السيارات الفارهة من بوابة الدار.

وقف عبدون خارج البوابة ينتظر لحظة الترحيب بشيخون.

ترجل شيخون من احدى السيارات الفارهة، فاستقبله عبدون استقبال الفاتحين، يقبله يمينا ويسارا غير هابٍ بمظهر امام اخوته او رجال شيخون.

دخل شيخون الدار عينيه تلتقط صورا فتوغرافية لكل صغير وكبيرة ويردد ما شاء الله ـــ ما شاء الله – ويرفع يده لتحية بيده الايتام الذين تجمعوا بأوامر عبدون يمينا ويسار مهللين مرحبين بضيف حاكمهم البابا عبدون.

وصل عبدون وضيفه لغرفة البابا، عبدون مشيرا لكرسي البابا:

ـــ اتفضل هنا يا مولانا!

شيخون بتواضع مزيف:

ـــ لا يا صديقي، ميصحش... اقعد انت هنا.

عبدون:

ـــ لا خلاص، خليني جنبك هنا.

جلس عبدون على كرسي الضيوف في مواجهة شيخون (امام المكتب)، فقال شيخون وهو يلتقط بعينيه تفاصيل المكان:

ـــ يااه... الدار زي ما هي، مفيش حاجة فيها اتغيرت... تحسها بقت اثار كأنها اتبنت من الاف السنين... هو انت تعرف عمر داركم دي كام سنة يا عبدون؟

عبدون:

ـــ مش عارف والله بالضبط، اللي اعرفه من زمان انها تاني اقدم دار في المنطقة كلها.

شيخون:

ـــ ده حلو طبعا... بس هي مش بالتاريخ يا صديقي، بالحاضر! واحنا عايزين الحاضر بتاعكم يبقى بنفس عظمة تاريخكم..

وصحيح بما اننا جبنا سيرة التاريخ.. ايه العربية اللي من العصر الحجري اللي على الباب دي؟

ابتسم عبدون بإحراج:

ـــ دي عربية البابا القديمة... كان دايما يودينا بيها المدرسة واحنا صغيرين، بس مع زيادة اعداد اللي بيروحوا المدرسة بقي في اتوبيس بياخدنا ويرجعنا.

وينتبه عبدون فجا ليقطع حديثة بنفسه:

ـــ اخ صحيح، المدرسة! انا كنت ناسي الموضوع ده خالص انا لازم اجهزها من دلوقتي.

شيخون:

ـــ يا عم، احنا في اجازة الصيف، ومن هنا لبداية الدراسة تكون الدار وقفت على رجليها وظبطت الامور.

عبدون:

ـــ عندك حق والله المهم دلوقتي الدار تقف علي رجليها، وبعدين نشوف موضوع التعليم، اصله عمل ايه التعليم لدرا ضايع

شيخون:

ـــ يبقي متفقين مش مهم تعليم على الاقل دلوقتي

المهم بالنسبالي حاج تانية اهم بكتير...

عبدون:

— قولي طبعا واعتبره حصل

شيخون:

— وانا داخل، شايف اخوتك في الدار شباب كبيرة مش اطفال وده حلو طبعا

بس لازم تاخد بالك ان ده زي ما هو مفيد زي ما هو يخوف...

لازم العيال دي تشوفك على وضعك واقوي من اي حد فيهم حتى اقرب رجالتك لازم محدش فيهم بفكر حتى يقرب من الكرسي ده

— ويشير لكرسي البابا

وبنظرة حاده يستكمل شيخون حديثه:

لازم يعرفوا ان اللي هايقرب لكرسيك عبدون هايشيله من على وش الارض شيل!

بعد سكون للحظات استطرد شيخون:

— مهم اوي يعابدون الشباب المساعدين ليك رجالتك زي اللي واقفين حراسة على الباب دول يبقي ليهم معاملة خاصة...

لازم تنغنغهم اكتر من الباقي، طول ما هما اقوياء ومخلصين ليك، انت في امان وفوق الكل...

وخد المبلغ ده خليه معاك، ده لرجالتك مش للدار.

ثم اخذ شيخون نفسا عميقا واكمل:

— وشوف بقي يا عوبد... انا جيت النهاردة عشان اكبرك قدام اخوتك ويطمنوا انك كبير والكل بيخاف منك وبيحبك وبيحترمك جوه الدار وبره الدار...

وكمان عشان حاجة مهمة مكنش ينفع اقولها في التليفون!

عبدون:

— امرك يا شيخون!

شيخون:

— موضوع انابيب الغاز... انت مصلحتك تشتريها من دار قريبة جدا منك هنا... هم ولاد عمنا مش اغراب يعني...

اي نعم بلطجية ومكروهين، بس هما بيحبوك ومصلحتهم معاك...

هايقفوا في ضهرك اكتر مننا حتى، بس لازم توريهم انت ازاي بتحبهم!

عبدون:

— اعمل ايه طيب؟

شيخون:

— ولا حاجة... غير انك تلمح ليهم انك منهم، وتتكلم عنهم كويس، وتظهر لهم ان كل الشباب الشداد اللي عندك تحت سيطرتك...

وخليك صريح معاهم، قولهم انا محتاج انابيب غاز على طول... وحتى لو باعوها ليك بالغالي، اشتري بكل اللي معاك، واحنا في ضهرك لو محتاج اي حاجة المهم تعمل علاقات قوية مع الناس دي.

عبدون:

— طيب اتواصل معاهم ازاي؟

شيخون:

— بص... اولا مينفعش يجوا هنا علني كده، لازم تقابلهم بره عشان اخوتك ميشوفوش.

عبدون:

ـــ ما هو اخوتي كده كده ها يشوفوا الانابيب جاية من عندهم، وانت بتقول ان الكل عارف انهم بلطجية، واخوتي ها يعرفوا حتى لو من زمايلهم في المدرسة لما تخلص اجازة الصيف!

قطب شيخون حاجبيه بضيق:

ـــ انت بتضايقني جدا على فكرة!

قلتلك سيبك من موضوع التعليم ده خالص، مش موضوعنا دلوقتي.. ولما الدراسة تبدا ابقى قول لأخواتك:

"انا مش عارف اكل، مش عارف اشرب، مش عارف اعالج".. وتقولوا ليا تعليم؟!

انتوا مابتعرفوش انه في حاجة اسمها فقه الاولويات؟!

شيخون لا يقاطعه احد:

اما موضوع يعرفوا الانابيب جاية منين، فدي اخر حاجة تقلقك، طول ما هما جعانين مش ها يسالوا عن اي حاجة تخص الاكل.. لا هو جي منين ولا ازاي ولا بكام ركز يا عوبد في الكلام ...طول ما هما ايه!

عبدون:

— جعانين ياشيخون عندك حق والله يا شيخون... ربنا خليك لينا

بس والنبي تنسق المقابلة انت وتقولي اقابلهم فين واروح ازاي؟

شيخون:

— اخ... تصدق موضوع "تروح ازاي" ده مفكرتش فيه... طيب اتصرف انت وصلح عربية البابا اللي بره دي عشان تبقى جاهز تتحرك بيها.

ضحك عبدون بسخرية:

يعني انا مش عارف اروح مشوار اقابل ولاد العم، هاروح مشاوير اجيب قطع غيار وعدة تصليح؟!

شيخون بابتسامة ماكرة:

ـــ تصدق عندك حق! بس انا عندي فكرة حلوة نضرب بيها كذا عصفور بحجر واحد..

عبدون بحماس:

ـــ معاك في اي حاجة قولي.

شيخون:

ـــ انت تسيب عربية البابا الخردة او اقولك انا اشتريها منك بس من غير ما حد يعرف اكنك بترميها عشان مش شغالة وعايز تعمل تجديدا في الدار وانا هاخدها احطها في متحف عامله للولاد عندي في الدار،

وانت تجيب عربية جديدة بقي حاجة فخمة جدا، بحيث اخوتك يعرفوا كويس انت مش بتدير الدار بشكل مؤقت لا...

انت بقيت البابا الجديد رسميا ...

عبدون البابا الجديد القوي والمختلف عبدون باشا في نفسه كدة!

ثم يهمس شيخون في اذن عبدون لازم يشوفوك كده.

وبالنسبة للعربية ايه اللي عايزك تشتريها.. فهي عربية فخمة جدا شبه العربية اللي انا راكبها بره!

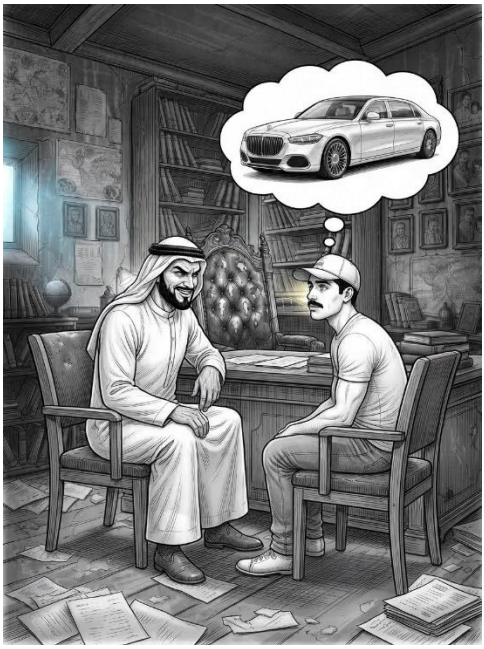
لمعت عينا عبدون بتلهف شديد، وقطع شيخون حديثه المعلق به شغف عبدون ليشرب قطرات من الماء:

— لا مؤاخذة يا عبدون، عطشت فجأة...

بص يا سيدي، في عربية اسمها "ملكة الصحراء"... دي هاتبهرهم وبعدها كلها ها يشوفك كده اخواتك وغير اخواتك اعدائك قبل اصدقائك!

عبدون متحمس:

— ودي بكام؟



شيخون:

— لا... ملكة الصحراء دي غالية اوي بس وجاهة برضوا!

عبدون:

— طب ما انت عارف الي فيها هانجيب فلوسها منين؟

مال شيخون برأسه للأمام:

— من ناحية الغرب كده... في كام دار متقدمين اوي، ومش من مصلحتهم الدار عندك تقع...

وانا في الكام يوم اللي غبت فيهم عنك، كان في شغل بيني وبينهم، وجت سيرتك وحسيت منهم انهم ممكن يساعدوك.. حاول تستلف منهم، ولما الدار تقف على رجليها نرجع اللي استلفتوا.

عبدون بتلهف:

— ياريت والنبي يا عمو شيخون!

عقد شيخون حاجبيه مرة اخري:

— هههه... مش لايق عليك دلوقتي "عمو" دي خالص!

وبعدين اصلا مش راكبة.. يا تقول "يا شيخون" يا تقول "عم محمد الشيخ"، انما "عمو" قبل اسم الدلع دي مضحكة جدا بصراحة!

عبدون:

— شيخووون... اللهفة على افكارك دي لخبطتني... طيب قولي، هما برضه لازم اروح ليهم زي ولاد العم؟

شيخون:

— لا... دول بيعملوا كل حاجة في العلن،

بس لازم تديهم ضمانات ان فلوسهم هاتتصرف في السيطرة على الدار...

واستكمل شيخون:

— ولازم قدام ايتام دارهم ودارك، تقولوا اننا بنضمن ان الفلوس دي هاتتصرف على "التنمية المستدامة واصلاح الهيكل الاداري للدار"!

عبدون بذهول وبصوت منخفض يكاد الا يسمع:

— التنمية المستدامة التنمية المستدامة ؟!

شيخون:

— ايه يا ابني روحت فين؟

عبدون:

— لا... اصل كلمة "تنمية مستدامة" دي فكرتني بالبابا، كان دايما يقول الكلمة دي، حتى الواد سعيد وهو البابا خارج اخر مرة قال نكته عليها...

ده كده البابا كان مدور الدار زي ما انا بعمل برضه!

ضحك شيخون:

— عليك نور يا بطل! بس عايزك متجبليش سيره الواد سعيد ده تاني، لا هو ولا اي حاجة من الاشكال دي.

كان عبدون يحدث نفسه بصوت خفي:

— هو ازاي شيخون فاكر اسم سعيد في كل المشاغل اللي عنده دي؟ ده كان بيتلغبط في نطق اسمي لحد بعد اسبوع من مكالمات كل يوم!

الواد سعيد ده شكله مهم ومعروف وانا معرفش ولا ايه؟!

قاطع شيخون افكاره المتسارعة:

— ايه يا ابني، هو انتهاء تفضل كل شوية تسرح مني كده؟ عموما حقك يا عم، ما انت صاحب "ملكة الصحراء"!

عبدون:

— طب يلا بقي قولي، هانعمل كدة امتي؟

شيخون:

— لا... اهدي كده، الحاجات دي بتاخد وقت!

عبدون:

— يا نهار اسود! ده انا كده في مصيبة.. الانابيب بتفضي خلاص، هاكل العيال الاكل من غير طبخ ولا اول ليهم حطب يطبخوا عليه ويقولوا عليا فاشل والدار بترجع لورا؟!

شيخون:

— وهو صاحبك برضو يسيب شكلك يبقي كده؟

متقلقش زمان الشباب اللي معايا بره نزلوا حمولة عربية تانية كلها غاز وجاز وكل انواع الطاقة اللي تحلم بيها..

دي عندنا منها كتير اكتر من المياه، والحمولة اللي بره هاتكفيكم لحد بس ما تظبط دنيتك!

عبدون باستغراب:

— طب اما الغاز والجاز عنكم اكتر من المياه اشتري من ولاد العم ليه ما اشتري من عندكم علي طول؟

شيخون:

ياريت ينفع والله! ده كده هاتبقى تكلفة النقل اكتر من السعر نفسه،

انما ولاد عمك الباب في الباب، ومهما باعوا غالي هما ارخص لك.. ده غير انه كويس تشتري منهم وتعمل علاقة معاهم، الناس دي دايما في ضهر اصدقائهم!

استكمل شيخون حديثه بعد ان اخرج من حقيبته رزم نقود كثيرة:

— خد خليهم معاك عشان تعرف تتمنظر وتتعامل، ومتقولش حتى لسعداوي حاجة عنهم... دول من اخ لآخوه مش من شيخون للأيتام! يلا بقي اسيبك وامشى، عشان لسه عندي جولة كبيرة.

عبدون بحماس:

— طب لازم اوصلك بنفسي!

شيخون:

— يلا بينا...

واستكمل شيخون حديثه وهو في طريق الخروج:

— مفكرتش يا عبدون تغير الأوضة المقبضة اللي انت قاعد فيها دي؟ دي حتى مش منطقية لواحد هايركب "ملكة الصحراء"!

ضحك عبدون بإحراج:

— منين يا كبير؟ ما انت عارف اللي فيها!

شيخون:

— يا مسهل... يا مسهل... كله على الله ومتقلقش كل الحاجات دي هاتتظبط!

دخل شيخون سيارته وانطلق، ودخل عبدون فورا على اخوته صارخا فرحا ومنتشياً:

شوفتوا بقي لما قلتلكم تنضفوا الدار امبارح.. كان عندي حق ازاي؟!

احنا النهاردة جبنا جون بجد..

وبكرة تشوفوا الدار! ويلا.. النهاردة لعب وهزار وغنا!

ثم نظر ناحية البدروم:

— حتى اللي في البدروم... ينزلهم اكل زيادة... وبكرة بنفسي هانزل البدروم اطمئن عليهم، دول اخواتنا برضوا مهما كانت دماغهم بايظه!

واستمر الجميع في اللعب والغناء طوال اليوم، عبدون جنب فاتن، وسعيد جنب زيدان

ومضبوط في النص "الكلب الحيران"، حتى تعب الجميع وتسلل الواحد تلو الاخر ليستريح من لعبه هاربا الى النوم المفقود.

الفصل التاسع:
الثورة كخ

انتهت ليلة الاحتفال العظيم، وانقضت معها هيصة الفرح المدوي التي استمرت حتى الفجر؛ استقر الطعام في البطون، ونام ايتام «دار الامل» نومة ثقيلة لم يعرفوها منذ غياب البابا.

حتى سكان البدروم نالهم من نفحات البهجة بعض الطعام بأوامر عبدون، الذي استشعر في تلك الليلة انه بلغ سدرة المنتهى من القوة والنفوذ.

الجميع يحتفل الجميع مبتهج لم يكن عبدون سعيدا بتوفر الطعام وانابيب الغاز فقط كباقي الايتام، ولكنه مبتهج لنجاحه في تامين طعام اخوته لفترة اكبر نسبيا من سابقيها

نظر عبدون في عيونهم وهم يرقصون حوله، احتضنهم جميعا كاخ بحرارة صادقة، ووقف ليصرخ بصوت هز الجدران:

تحيا دار الامل!... تحيا دار الامل!... تحيا دار الامل!

ومع تسلل النور الخافت، هبط النعاس على الصغار واحدا تلو الاخر؛ ثقلت اجفانهم بفعل البطون الممتلئة، وسكنت الدار في ثبات عميق.

غابت الضوضاء وانطفأت فرحة الايتام في الساحة، لكنها انتقلت الى عقل عبدون الباطن، لتبدا في احلامه الاحتفالاتُ الحقيقية.

عبدون في منامه، يترجل من سيارة فاخرة ذات نوافذ معتمة، تهادت على ارضية مُهدت ورُصعت بالمجوهرات، تحيط بها عشرات من سيارات الحراسة الضخمة.

وبمجرد ان توقفت السيارة، قفز الحراس الشخصيون بأجسادهم العريضة ليفتحوا باب «البابا عبدون».

امسك بيد اميرته فاتن الجالسة الى جواره في السيارة الفارهة؛ ترجَّل بين رجاله بخطوات وثيقة، وعلى الجانبين كانت الافُ الاطفال يلتفون يمينا ويسارا، يلوحون بأيديهم ويهتفون:

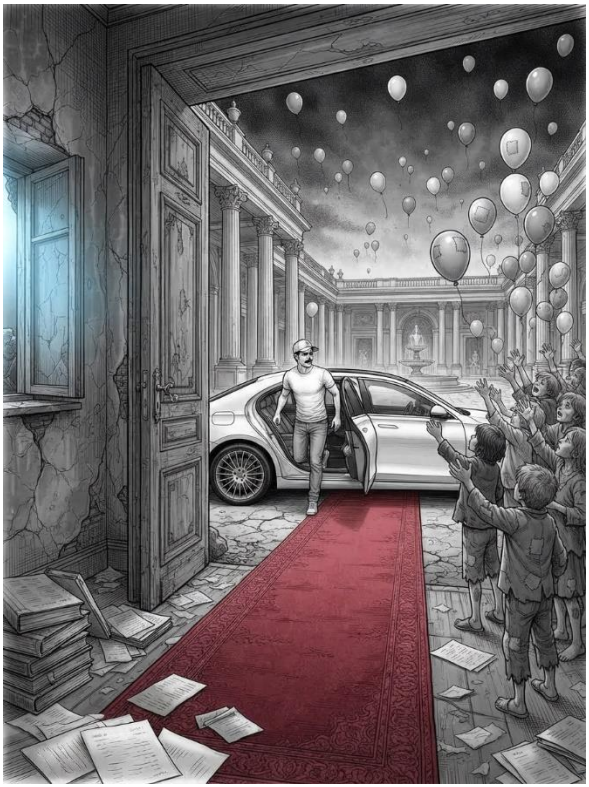
عبدون! عبدون!... يعيش عبدون!... يعيش... يعيش... يعيش!

اشار عبدون لحراسه بإيماءة كبرياء، فاندفعوا نحو احدى الشاحنات واستخرجوا مئات البالونات الملونة الممتلئة بالهيليوم.

بادر الحراس بإلقائها عشوائيا على الجماهير العريضة، بينما عبدون لا يزال يوزع التحيّات الملكية..

وقبل ان تطال ايدي الصغار الممدودة تلك البالونات، ارتفعت في السماء بعيدا بفعل الهيليوم، فصاح الاطفال فرحا بالهدايا التي كان يمكن ان يحصلوا عليها، واستمروا في الهتاف الهستيري:

«عبدون!... عبدون!... عبدون!».



خطا عبدون نحو غرفة البابا، فأشار اليه مساعده «زيدان» براس ينحني اجلالا نحو سجاد احمر فاخر، يربط بين الغرفة القديمة وبناء حديث بالوان زاهية يشبه قصرا منيفا شُيِّد في قلب بهو الدار.

تحرك عبدون فوق السجاد بخطوات متقطعة، وكل شيء حوله ينطق بالثراء.

جلس على كرسي البابا الفخم، وامسك ريموت التلفاز ذا الشاشة العملاقة على نشرة اخبار عالمية؛ ظهرت المذيعة بوقار وتقاطيع جادة وهي تقول:

«... وكانت تجربة عبدون العظيمة قد غيرت ملامح الاقليم بالكامل واعادت صياغة الاستقرار...».

وقبل ان تكمل الخبر، ضغط الزر لينتقل الى قناة اخرى تعرض مسلسلا دراميا، وتحته شريط اخباري:

[عاجل: عودة العظيم عبدون الى دار الامل بعد جولة تاريخية انقذ خلالها ٧ دور ايتام من الانهيار وشبح الفوضى].

ضغط الزر مرة ثالثة،

ليرى مراسلا في الشارع يسال احد المارة عشوائيا:

«قولنا ايه سر حبك لعبدون؟»، وقبل ان ينطق الرجل بكلمة...

تلاشى القصر والمواكب وابتلعت الشاشة العريضة ظلمة خاطفة، وانشق المنام على صوت خبط متواصل على الباب، وصوت ينادي من الخارج:

— اصحى يا عبدون!... الضهر اذن وكلنا نمنا كتير اوي!

فتح عبدون عينيه ببطء، ليجد نفسه جالسا على كرسي البابا العتيق، صاحب الجلد المتشقق الذي يخرج القش من جوانبه؛ ففي تلك الغرفة الراتبة التي ينبعث منها عبق الرطوبة والعفن، والتي لم يعرف فيها طعم النوم المريح منذ دخلها حاكما للدار.

الا في هذا الحلم الجميل شعر بنغزة في صدره؛ نظر الى المكان فيجد العفن، وينظر للأرض فيجد بواقي الطعام.

تنفس بصوت عالٍ وهو يمسح وجهه بكفيه، وقال بصوت متثائب:

— ادخل يا ابني... ادخل.

انفتح الباب ودخل عدد من الاطفال، في مقدمتهم اللمض الصغير مظبوط، وهو يتخفى خلف الباب ممسكا بين اصابعه الصغيرة مجسم لعبة زرقاء مكسورة قد غنمها من زينة امس، والى جواره بنوتة صغيرة جميلة تقف بفضول الصغار.

تقدمت الصغيرة خطوات، وقالت ببراءة:

— يا عبدون، احنا طلعنا نلعب في الجنينة، وزيدان الرخم ده قالنا مفيش لعب لحد ما عبدون يصحى ويقول النهاردة نلعب ولا ننظف زي امبارح... هو فيه ضيوف تاني النهاردة؟ احنا عايزين نلعب بقي!

تردد في اذن عبدون صوت، عن ضرورة تمييز اتباعه المقربين وتثبيت اقدام رجاله فوق بقية الايتام.

ونظر عبدون للصغيرة بنبرة ابوة مصطنعة:

— اولا يا لمضة انتي مسميش عبدون... اسمي «البابا»!

ثم التفت الى مظبوط وهو يبتسم ابتسامة باهتة:

— ما تقولها يا عم... هو احنا مش اتفقنا قبل كده؟

ثم عاد يوجه كلامه للبنت:

— ثانيا... الطفل المحترم يسمع كلام الاكبر منه. (ووضع يده على كتف زيدان):

— وزيدان ده اكبركم، وبيساعدني في ادارة الدار... يعني نسمع كلامه!

وامسك بيد الصغيرة برفق لم يؤلمها، مستدركا:

— يعني عيب نقول عليه رخم.

ثم تنفس بعمق وقال:

— ثالثا... يلا اعتذروا لزيدان واطلعوا العبوا، النهاردة سماح ومفيش شغل.

رابعا... يلا بقي عشان عندي شغل كتير... بس استنى انت يا زيدان، عايزك.

واثناء اندفاع الصغار نحو الباب للخروج، نادى عبدون بصوت عالٍ:

— يا مظبوط!... قول لفاتن تعملي فطار، وخلوا اخواتكم البنات يأكلوكم!

التفت مظبوط عند العتبة، وربط يديه امام صدره بجرأة طفل لم تستوعب بعد موازين القوى الجديدة، وضغط على مجسم اللعبة المكسورة في يده وقال بلهجة قاطعة:

— لا... مش قايل لحد حاجة! انت مش قولت النهاردة لعب؟

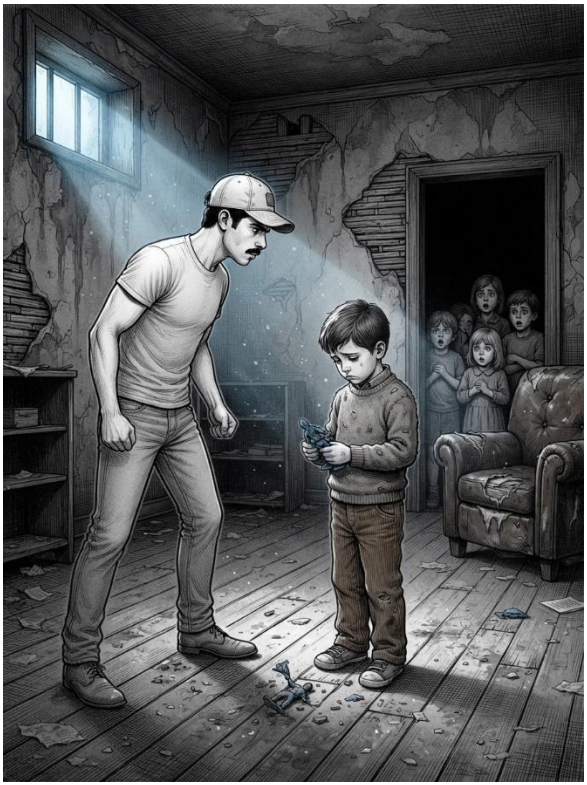
انا اصغر طفل في الدار، والمفروض انا اكتر واحد يلعب، مش افضل اللف على العيال اقول لفلان وعلان اوامرك!

تغيرت ملامح عبدون في لحظة خاطفة، واختفت ابتسامته الابوية ليحل محلها احمرار مكتوم وشراسة فجائية.

قام من مجلسه بخطوات ثقيلة، واقترب من الطفل مظبوط حتى حجب عنه ضوء الشباك، ومد يده ببطء مرعب وانتزع اللعبة من يده الصغير، وبحركة واحدة حاسمة من ابهامه كسر اللعبة امام عينيه ورماها تحت قدميه.

نفخ صدره وصرخ بصوت كالرعد:

— هو ده اللي انا قولته؟!... نسمع الكلام!! انت معاقب يا مظبوط!... ومش بس مفيش لعب... انت كمان هتتنيل تنزل البدروم!



كان صوت الزعيق والنهير القاسي كفيلا بجذب انتباه الاطفال في الممر والجنينة.

تجمع العشرات عند الباب، وسمع الجميع امر «البابا الجديد» بسجن الطفل المدلل مظبوط.

تقدمت فتاة في بداية المراهقة، وقالت بصدمة ووجه شاحب:

— ايه اللي بتقوله ده يا عبدون؟!... انت عايز تحبس عيل صغير؟!

التفت عبدون اليها، وصاح بقسوة:

— احبسه!... واحبسك!... واحبس اي حد يفكر يعارض كلامي!

تقدم مراهق اخر خطوة للأمام قائلا باستنكار وسخرية خافتة:

— ايه اللي بتعمله ده؟ ... مين اداك الحق في انك تحبسه؟

رد عبدون بنبرة حاسمة:

— انتوا.... ايوة انتوا!... الدار فوّضتني احميها من اي خطر محتمل! ولا نسيت؟

رد المراهق بصوت خافت وهو يتراجع للخلف:

— والعيال الصغيرة دي خطر محتمل يعبدون؟!

عبدون بصوت هادئ وبارد:

— لا... مش هما بس... انت كمان خطر!

هاج عبدون فجأة في وجه زيدان:

— نفذ التعليمات يا زيدان!... الثلاثة ع البدروم، والكل بره!

وانقض زيدان ورجاله، امسكوا بمظبوط الذي بدا يبكي بغير فهم، وسحبوا الفتاة والمراهق وسط ذهول الجميع، ليقودوهم الى غياهب البدروم.

خرج الاطفال من الغرفة في حالة من الصدمة والرهبة والجمود، وكان قرارات الدقائق الاخيرة قد سحقت كل ما تبقى من غناء البارحة وفرحة الشبع.

ولم يتبقَ في الغرفة سوى «سعيد»، كان يقف صامتا، يراقب المشهد.

وقبل ان يخرج سعيد عبدون بنظرة حادة، وبنبرة استعلاء:

— ايه يا سعيد؟ ... يعني مش طالعلك صوت! عاجباك قراراتي طبعا... انت عاقل ومتربي وتفهم في الاصول.

سعيد بثبات، وابتسامة تهكمية خفيفة:

— لا الحقيقة... انا محوش صوتي لمكان تانى ها يبقى مناسب اكتر!

عبدون:

— مممممـ يعني ايه بقي؟

سعيد ببرود:

— مش يعني حاجة.

عبدون بحدة:

— مفيش حاجة اسمها كده!... قلت كلمة يبقى توضحها!

سعيد وهو يستند بظهره الى الاطار الخشبي للباب:

— ده لما اكون قايلها بالروسي!... انت مش اكبر مني، وقادر تحكم وتفسر كل حاجة لوحدك.

اقترب عبدون منه خطوات، وبنبرة تهديد صريحة:

— يا سعيد... خليك عارف اني مش هاصبر عليك كتير!

سعيد بثبات:

— طيب سيبني بقي استغل فترة صبرك دي واستمتع بيها!...

او اقولك على حل سهل؟ اول ما زيدان العبقري بتاعك يطلع، قولّه ينزلني البدروم معاهم... ولما الايتام يسالوك حبسته سعيد ليه، قولهم: عشان كان ساكت!

ثم تحرك سعيد بهدوء، وقبل ان يخطو للخارج، نادى عليه عبدون بصوت مكتوم:

— بقولك ايه يا سعيد... هو انت تعرف شيخون منين؟

ادار سعيد وجهه ببطء، ونظر الى عبدون بسخرية مريرة:

— انا لا عارف لا شيخون، ولا شمعون، ولا سيحون... ولا اي حد!

عبدون بجفاء:

— طب خد الباب في ضهرك!

سعيد بابتسامة ناعمة:

— اوامرك يا... يا... يا بابا!

خرج سعيد وجلس عبدون، وذهنه مشغول في العديد من الاسئلة؛

لماذا يكره شيخون هذا السعيد بالذات؟

وهل يمكن لهذا الكره الشديد ان ينبت بلا معرفة سابقة؟

كانت الاسئلة تتصارع في راس «البابا الشاب»، بينما كانت الاقدام الثقيلة تهبط السلم نحو البدروم.

في القاع المظلم، حيث تأكل الرطوبة الجدران ويختنق الهواء، وصل زيدان ورجاله بالسجناء الثلاثة.

فُتحت الابواب الحديدية؛ اودعت الفتاة المراهقة في سجن النساء حيث سلطة «منى»، بينما ادخل مظبوط واخوه المراهق الى زنزانة الرجال حيث «بكر».

كان السجنان قد تحولا الى مملكتين متباينتين تماما؛

في سجن النساء، كانت منى تجلس على طرف الدكة الخشبية، ورغم القذارة المحيطة بها كانت تحاول الحفاظ على اخر ما تبقى من كبرياء جمالها وتأنقها، مأخوذة بكبرياء الجسد والهوس بالنظافة.

كانت تمسك بعود خشبي محروق من بقايا شمعة سابقة، وترسم به خط كحل اسود على جفنها امام انعكاس وجهها في قطعة زجاج مكسورة، تُجمل انكسارها برسم الكبرياء.

وكانت قد اتَّخذت من «نوران» وصيفة خاصة تدير لها شؤون مملكتها الصغيرة.

دخلت الفتاة المراهقة الزنزانة المظلمة وهي ترتجف، لم تتحرك منى، واكتفت بإشارة كبرياء بعينيها لنوران كي تستقبل الوارد الجديد.

ارتمت الفتاة في احضان نوران وهي تبكي:

— يا نورا... واحشاني اوي! طمنيني عليكم... ايه اللي بيحصل هنا؟

نوران تهمس:

— احنا زي الفل... ادخلي بس سلمي على منى الاول وبعدين نتكلم.

تقدمت الفتاة بخطوات خائفة لتسلم على منى، لكن رد فعل الاخيرة كان غريبا ومتحفزا.

كانت منى تفترش دكة، مستلقية كملكة اغريقية، رمقت الصغيرة من اسفل قدميها حتى اعلى راسها بنظرة فاحصة، ثم قالت بجفاء:

— اهلا وسهلا بالوارد... خديها يا نوران دلوقتي، قوليلها تقعد فين وفهميها قواعد السجن.

انا هنام شوية، واما اصحي تبقي تحكيلنا مصيبة ايه عملتها جابتها عندنا هنا.

اغمضت منى عينيها واستدارت، فبدأت البنات يهمسن بصوت خافت للاطمئنان على اختهن التي انضمت خلف القضبان.

همست نوران:

— يا موزة طمنينا عليكِ... وبعدين ايه الجمال ده؟ انتي احلوتي كده امتى؟

المراهقة بضيق:

— هو فيه ايه يا نورا؟ بتتكلموا بصوت واطي ليه؟ ومنى عاملتني وحش ليه؟ هو انا عملت حاجة غلط؟

نوران مقاطعة بهمس سريع:

— لا يا بنتي، انتي قمر والله... بس هو هنا فيه قواعد! ومنى اقدم واحدة فينا، فهي اللي بتحط القواعد وهي المسؤولة عن تنفيذها.

الفتاة بذهول:

— قواعد ايه بالظبط؟ انا مش فاهمة حاجة!

نوران بجدية:

— هتفهمي كل حاجة مع الوقت... المهم دلوقتي تعرفي ان الكبير هنا منى، وخلتني وصيفتها، وكل حاجة هنا بتتحكم فيها منى... ولو غضبت عليكِ هتبقى ايامك وايامنا سودة!

الفتاة:

— طب واعمل ايه؟

نوران:

— مفتاح السعادة في السجن هنا هو التعبير دايما عن الاعجاب بجمال منى.

اه صحيح، نسيت اقولك... فيه حاجتين بيضايقوها اوي:

اول حاجة ان حد يتكلم وهي نايمة فيزعجها،

وتاني حاجة ان حد يعرف معلومة قبلها!

فـ انتي متدوريش تسالي على حاجة هنا، ولو حد دردش معاكِ وقال معلومة واتفتح كلام قدامها... ولا كأنك تعرفي!

الفتاة باستنكار:

— يعني انا المفروض طول ما هي نايمة اقعد قافلة بوقي، ولو حد كلمني ماسمعش، وكل ما اشوفها اقولها الله انتي جميلة؟!

نوران:

— ده لو عايزة تعرفي تعيشي هنا!... بكرة تتعودي. بس سيبك انت، خلينا في المهم... انتي اتحبستي ليه؟

الفتاة بكسرة:

— عشان اعترضت على سجن مظبوط!

شهقت نوران بصدمة وصرخت بغير شعور:

— اييييه؟!... حبسوا مظبوط؟!... ده عيل صغير!

ايقظت الصرخة العالية منى من نومها.

جلست منى على الدكة بغضب شديد، وصاحت:

— ايه اللي بيحصل هنا؟! انتي يا نوران... ده انا خليتك وصيفتي وركبتك على زمايلك وعلى اي حد يتسجن تاني، تخالفي قواعدي وانتي اللي المفروض اللي تراقبي تنفيذها؟!

نوران بدموع وارتباك:

— يا منى انا مقدرتش اتحكم في نفسي... عبدون حبس العيل الصغير مظبوط!

منى ببرود شديد، دون ان يهتز لها جفن:

— اه طيب... انا اعمل ايه دلوقتي؟ حاضر، لحظة واحدة.

اتجهت منى بخطوات نحو النظارة (الفتحة الحديدية في الباب)، ونادت بصوت مرتفع لكي يسمعها سجن الرجال:

— معلش يا مظبوط!

ثم التفتت ونظرت لنوران بسخرية:

— اهو يا ستي... معلشته! مبسوطة دلوقتي؟ ...

انا هكمل نومي، بس قبل ما اكمل نومي لازم تعرفي انك غلطتي ٣ غلطات:

، اتكلمتي وانا نايمة،

وسالتي وارد علينا عشان تعرفي معلومة قبلي،

واتكلمتي معايا انا بصوت عالي!...

انتي هتتعاقبي على كل غلطة بساعة عند الدورة (دورة المياه) ... تخلصي عقوبتك بقي وتصحيني عشان اشوف البلاوي اللي بتتحدف علينا دي!

في الجانب الاخر، كان سجن الرجال تحت ادارة «بكر» يغلي بطريقة مختلفة تماما؛

كل شيء غير مرتب، القذارة في كل ركن، والسجناء يلتفون حول بكر يستمعون الى قصصه غير المنطقية.

كان بكر يمارس تمارين الضغط على الارضية الاسمنتية الباردة وعرقه يتصبب كانه يستعد لمعركة مع طواحين الهواء،

وقد مزق جزءا من ملاءة سريره وربطها حول راسه كراية ثورة،

وكان يخطب فيهم مدعيا انه كان البطل الخفي في ايام البابا، وانه هو من كان يدير الامور في السر بينما البابا لا يفعل شيئا،

وان البابا ابلغه قبل رحيله انه سيتاخر هذه المرة ووكّله بإدارة الدار، وان هذا بالذات هو سبب انقلاب عبدون لسرقة الشرعية منه!

انفتح باب الزنزانة فجأة، ودفع الحراس بالمراهق ومظبوط للداخل.

لم يتحرك بكر لرؤية المراهق، ولكن بمجرد ان اطل راس مظبوط الصغير من خلفه، انخلع قلب بكر.

اندفع ونزل على ركبتيه واحتضن الطفل بدموع وبكاء حار.

حاول بكر منع الحراس من اغلاق الباب، فدفعه زيدان من الخلف وهو يصرخ في اتباعه:

— اقفلوا الباب كويس!... زقوه جوة... زقوه جوة!

انطبق الباب الحديدي، فالتصق وجه بكر

بكر بصوت كالرعد:

— ليك يوم يا زيدان!... انت وكل اعوان المجرم عبدون... ليك يوم يا زيدان!

ثم رفع قبضته في الهواء، وبدا يهتف بحنجرة مبحوحة:

عمر السجن ما غير فكرة!... عمر القهر ما اخر بكرة!...

يسقط عبدون... يسقط عبدون... يسقط عبدون!

انتعشت روح التمرد في الزنزانة، فهتف السجناء خلفه بصوت هز الاركان:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

وصل الصدى الى سجن النساء، فاحتضنت منى اختها وعادت لتصرخ من خلف الباب:

— احنا معاك يا بكر!

فهتفت البنات:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

كان صدى صوت البدروم اشد واقوى من اي مكبر صوت؛ انبعث من منافذ التهوية والارضية ليجلجل في ساحة الدار فوق الارض.

سمع الجميع الهتاف ووقف الايتام يتبادلون النظرات المذهولة.
خرج سعيد من سيارة البابا القديمة، وصعد فوق سقف السيارة:

انتوا بتبصوا لبعض اهتفوا معاهم:

— يسقط عبدون!... يسقط عبدون!

هتف البعض خلف سعيد، وبفعل العدوى النفسية، شق الصوت الساحة، وانخرطوا جميعا في الهتاف الهستيري:

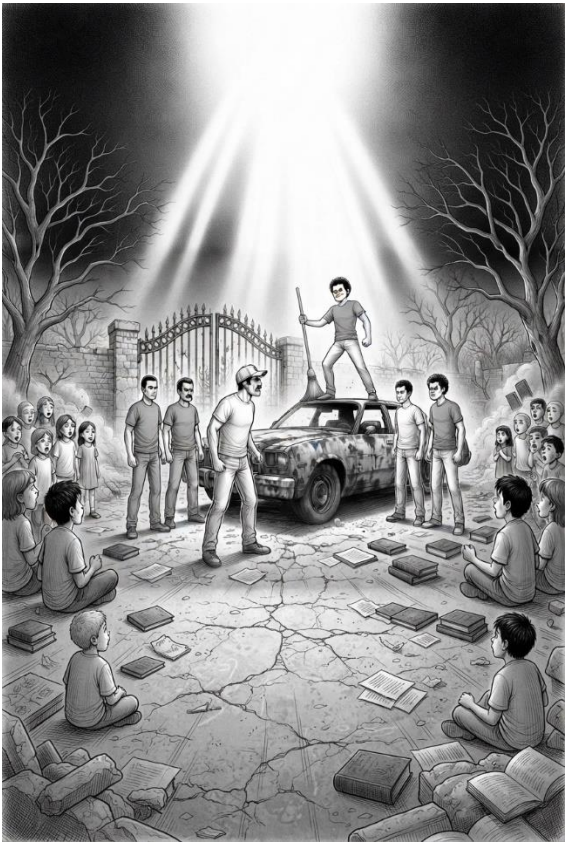
لم يكن هناك من لا يهتف سوى زيدان ورجاله المحيطين بعبدون.

اندفع عبدون غاضبا نحو الجنينة، ليجد الايتام قد التفوا جميعا حول سعيد.

وقف سعيد هادئا، في ثقة، بيده المقشة وينظر لعبدون بنظرة تحدي واستفزاز ومستفز.

تقدم عبدون ونظر في عينيه بحدة، فبادله سعيد ذات النظرة الثابتة مع رفع عصا المقشة رفعه بسيطة لكنها معبرة.

ساد صمت مفاجئ بين الجميع، وتوقفت الهتافات؛ نظرات تحدٍ صامتة بين الرجلين.



قطع سعيد الصمت بنبرة هادئة ورصينة:

— عبدون... انا قولتلك قبل كدة انا مش عايز منك، ولا من بكر، ولا من منى حاجة...

وقولتلك برضوا اني شايف ان مفيش فايدة، واهو انا عايش صابر وساكت! انما توصل انك تحبس مظبوط؟!

مظبوط ده ابننا مش اخونا... مظبوط لسه متعلم الكلام السنة اللي فاتت يعبدون!

ده غير كمان الطفل الغُلبان اللي حبسته من يومين عشان كان عايز ضربة جزاء في ماتش كورة ونسيته في البدروم!

بدأت الهمهمات تتسلل بين الاطفال، لكن عبدون تنفس بثقل، وقرر استخدام خطابه البلاغي العاطفي لامتصاص الفتنة.

وقف بثبات، وقال بصوت جهوري يملا الساحة:

— سعيد!... متزايدش عليا يا سعيد! انا اكبر منك، وعشت في الدار دي اكتر منك، وعايز مصلحتها اكتر منك... والاهم اني انا الوحيد اللي عارف مصلحة الدار فين!

ثم رفع يديه بحركة بتمثيلية متقنة وهو ينظر للأطفال:

— انا محبستش مظبوط يا سعيد!... ايوة!... محبستش مظبوط!

انا هنا «البابا»... واي اب من حقه يربي ابنه، خصوصا لو كان اخر العنقود السكر المعقود!

ثم نظر للجميع وقال بصوت يقطره الحنان المصطنع:

— ازاي ابقى بلعب معاه امبارح بالليل، والصبح احبسه يعني؟!

اكيد لا طبعا... انا هاخرجه!

كل الحكاية انه غلط، وانتم عارفين ان انا نازل النهاردة البدروم اطمن على اخواتنا تحت، وقولت لكم الكلام ده امبارح...

وانا بقي كنت ناوي وانا طالع اجيب مظبوط، بس يكون عرف واتعلم عشان ميغلطش تاني ويتربى!

ثم صرخ بنبرة مظلومية:

— ايه؟!... انتم عايزني اعمل؟ ...

اخلي كل حاجة سايبة يعني؟!

لا... لو كده يبقى بلاها حدوتة البابا دي!

ما هو انا مش هسيبها تغرق وانا بحكمها...

العيال الصغيرة دي لم تجد من يحنو عليهم... وانا بحنو عليكم والله!... حتى لو بالعقاب... عشان ده اصلا مسموش عقاب، اسمه تربية!

انبهر احد رجال زيدان بهذا الخطاب المتماسك، وبدون سيطرة على نفسه بدا بالتصفيق، فتبعه بعض الصغار من الايتام في ثوانٍ معدودة.

استغل زيدان الذكي هذه اللحظة، وصاح بأعلى صوته:

— يعيش عبدون!

فردد الجميع خلفه بحماس:

— يعيش عبدون!... يعيش عبدون!

تسلل عبدون بذكاء بين الهتيفة حتى وصل في مواجهة سعيد.

ابتسم وبضحكة صفراء مصنعة، احتضن سعيد بحرارة امام الجميع وهو يقول:

— انا مطمن على الولاد وانت وسطهم يا سعيد، وواثق انك بتحبهم وتحبني، وعملت اللي عملته ده خوف على مظبوط... بس لازم تعرف ان انا بحب مظبوط اكتر منك!

كان عبدون يحتضنه بقوة، بينما وقف سعيد بجمود كامل داخل الحضن، لا يظهر رفضا ولا يتجاوب بالرضا.

كان صوت الهتاف يتصاعد في الساحة: «يعيش عبدون!»، حتى وصل متأخرا الى مسامع السجناء في البدروم.

كانت نوران والبنات يهتفن «يسقط عبدون»، حتى رفعت منى قبضتها في الهواء واسكتت الجميع.

اشارت منى بإصبعها الى اذنها وقالت:

— اسمعوا!

وما ان ادركت البنات ان الهتاف فوق الارض قد تحول الى «يعيش عبدون»، حتى ساد الذهول والصمت القاتل.

قالت منى بصوت يائس ومتهالك:

— طيييييب!... يلا بقي كل واحدة في مكانها... وانتي يا نورا يا حبيبتي متنسيش عقوبتك، يلا ع الدورة!

اما في زنزانة بكر، فقد انتابه ذات الشعور البشع الذي شعر به ليلته الاولى في السجن؛ نفس الهتاف، نفس الخذلان، ونفس المهانة فتجددت مشاعر الكره والبغض لكل سكان ايتام الدار.

صرخ بكر بصوت يمزقه القهر:

— مش هيعيش عبدون!... يعيش بكرون!... يعيش البابا!... يعيش بكرون!

ثم التفت لرفاق الزنزانة وصرخ فيهم بغل ارهب الجميع خصوصا الصغير مظبوط:

— اهتفواااا!... يعيش بكرون!... ايه؟ مابتعرفوش تهتفوا غير لعبدون؟!

انتم السبب قبل كده... هتفتوا وانا بتسجن، واديكوا حصلتوني!...

وبكرة اللي بيهتفوا فوق دلوقتي يجوا هنا ويهتفوا زيكم!...

يعيش بكرون... يعيش بكرون...

وظل يرددها بصوت ينخفض تدريجيا، حتى انهار على الارض وسكت تماما، ليعود البدروم الى صمته البشع.

بعد ان اطمان عبدون لانتهاء اخطر تمرد واجهه منذ بداية حكمه للدار، عاد الى غرفة البابا، وجلس خلف ونفث انفاسه بقوة.

— يا زيدان.

دخل زيدان قائلا:

— كل حاجة تحت السيطرة بعد كلمتك يا ريسنا!

عبدون بثقة:

— اقعد يا زيدان... عايز ادردش معاك كأخوات.

زيدان:

— شرف ليا يا ريس.

عبدون بتامل:

— ايه رايك في اللي حصل بره ده؟

زيدان بسخرية:

— انا شايف شوية عيال!... وانا بحسبك كنت هتسيبهم يتسلوا ويلعبوا لعب العيال ده... هو اصلا الهتاف ده كان هيفرق في ايه؟ مين هيسمعهم يعني؟

نظر عبدون للغرفة، وقال بنبرة هادئة:

— اتعرف معنى الكلمة؟

زيدان بجهل:

— لا معرفش.

ابتسم عبدون ابتسامة خفيفة:

— ولا انا!... بصراحة انا سمعت زمان وانا صغير مع البابا على الراديو حد كان بيقول: «اتعرف معنى الكلمة؟» ... وبعدها كلام كتير لحد ما في الاخر قال «شرف الله هو الكلمة»!

وقتها استغربت اوي الكلمة دي وسالت البابا يعني ايه شرف الله؟

قالي: شرف الله هو الامانة اللي في رقبتنا،

والدار دي امانة يا زيدان... ومفيش خطر عليها غير الكلمة!

الولاد بيتجمعوا حولين سعيد بسبب هزاره وكلامه، وممكن فجأة نلاقي الاطفال كلهم رافضين يسمعوا كلامنا لو سعيد قالهم متسمعوش الكلام!... وقتها ايه العمل؟

زيدان بجدية:

— طب نعمل ايه؟

عبدون بصرامة:

— القوة يا زيدان!... القوة! شد عليهم... خليهم خايفين يتكلموا... خليهم شايفينا السند وعمود الخيمة... خليهم يقولوا ان احنا لو مش موجودين الدار دي هاتقع!

زيدان بقسوة:

— هاتشوف يا ريس... هنضرب بأيد من حديد على دماغ اللي يعارض اوامرك!

عبدون مقاطعا بحكمة خبيثة:

— لا يا زيدان... احنا عايزينهم ميوصلوش للمعارضة اصلا!

اضرب اللي يفكر حتى يعارض!...

مش عايزينهم يخافوا مننا، عايزينهم يخافوا يفكروا انهم يعارضوا!

وده هيحصل لما نخليهم مؤمنين ان الدار يعني عبدون... وعبدون يعني الدار !

ثمّ مدّ عبدون يده في درج المكتب المظلم، واخرج رزمة من النقود (تلك التي اخذها خفية من شيخون):

— خد يا زيدان... الفلوس دي ليك لوحدك، محدش يعرف عنها حاجة...

وده مبلغ تاني خليه معاك، وزعه على رجالتك وفهمهم ان ده ليهم من غير سبب،

او انه ليهم عشان عبدون مبسوط منكم...

المهم خلي موضوع الفلوس ده بيني وبينكم، بدل ما الكل يجي يقولي اشمعنى، وانا اكيد مش هدي اللي كان بيهتف يسقط عبدون من شوية!

طبطب عبدون على كتف زيدان المنبهر بالمبلغ، وقال:

— يلا يا زيدان... حط الفلوس في جيبك يا بطل، وجهز نفسك عشان ننزل نزور البدروم... وطبعا مش محتاج اقولك تعمل ايه.

زيدان وهو يضع الاموال في جيبه بلهفة:

— سعادتك اديني ساعة وتبقى كل حاجة جاهزة!

خرج زيدان ليصيح في مساعديه بصوت مرتفع:

— عايز البدروم يبقى على عشرة على عشرة!... عايزه بيلمع، يبقى احسن حتى من فوق هنا!...

مش لازم البابا يشوف اي حاجة غلط، ولا عايزين تعليق واحد منه...

وعايز اقولكم على حاجة: لو كل حاجة مشيت صح هعملكم مفاجأة حلوة... بس شرفوني!

استغل عبدون ساعة الانتظار، ورفع سماعة الهاتف الارضي.

— الو...

من الجانب الاخر ببهجة سعداوي المتسلطة:

— يا عوبد!... ازيك؟ واحشني والله! عرفت من شيخون انكم عملتم اتفاقات عظيمة!

عبدون بابتسامة غرور:

— يا سعداوي... مجرد مقابلة شيخون ده في حد ذاته عظمة!

سعداوي بثقة:

— طبعا طبعا!... شيخون ده علاقاته اكبر مما تتخيل بكتير، واي ملف بيشتغل فيه بيحقق اللي هو عايزه.

عبدون:

— طب ايه؟ مش هتيجي تزورنا انت كمان؟

سعداوي:

— لا، انا عندي فكرة احسن... مش عايز تيجي انت تزورني؟

عبدون بتردد:

— ياريت!... بس انت عارف انا عندي ظروف استثنائية وبحاول اسيطر على الوضع عندي.

سعداوي:

— شيخون قالي انك مسيطر فعلا، ورجالتك اقوياء وتقدر تعتمد عليهم.

عبدون بفخر:

— طبعا!... ومش انا بس اللي اقدر اعتمد عليهم، دي المنطقة والاقليم كله يقدر يعتمد عليهم!

وعايز اقولك حاجة... شيخون اداني مبلغ اوزعه على الرجالة عشان يحسوا انهم مميزين، وفعلا اديت زيدان مبلغ وقولتله ميقولش لحد، وكمان اديت مبلغ للرجالة.

سعداوي بسرعة ونبرة تحذيرية:

— لا لا لا!... اللي انت عملته ده غلط!

عبدون بدهشة:

— ليه بس؟ ده اقتراح شيخون!

سعداوي بخبث:

— انت فهمتني غلط... مقصدش ان توزيع الفلوس غلط، انما اقصد ان الغلط انك عملت ده في السر!...

انت عارف انه ممكن يبقى اكبر خطر عليك؟ هما رجالتك!

عبدون:

— ازاي؟

سعداوي:

— يعني دول اقوياء زي ما انت بتقول، وشيخون حكالي... فـ ايه بقى الضمانة ان محدش فيهم يطمع في الكرسي بتاعك؟ خصوصا كبيرهم ده...!

عبدون:

— تقصد زيدان؟ لا لا متقلقش... انا اكبر منه والكل بيعملي انا حساب مش هو.

سعداوي بسخرية:

— طب ما بكر كان اكبر منك، والكل كان بيعمله حساب!

عبدون بتلعثم:

— تصدق عندك حق!... طب شور عليا يا صديقي.

سعداوي بلهجة الاستاذ:

— بص بقي... اهم حاجة تعملها مش انك رجالتك وبس... لا!

انت هتميزهم جدا، واديهم فلوس مرة واتنين وتلاته... بس مش في السر! انما في العلن!...

لازم يظهروا قدام اخواتهم انهم هما اللي واكلين حقهم، مش اي حد تاني!

باختصار: مينفعش يبقى ليهم شعبية! كل ما الايتام كرهوهم، كل ما بقيت انت في امان...

مش بس عشان الايتام مش هيدعموهم، لا! كمان عشان هما هيبقوا شايفينك الضمانة لاستمرار نفوذهم!

فلو عبدون اختفى، العطايا مش هتبقى موجودة... وده مهم!

لكن الاهم: الشباب هيثوروا عليهم، وها يموتوا عشان يحموك، حتى لو وقفت اي عطايا لان حمايتك بقت حماية ليهم هما ولمصالحهم

ويا سلام لو تخليهم هما اللي ياخدوا كام قرار حبس ظالم ولا حاجة تبقي خدت بصماتهم على اي سلاح جريمة ممكن حد ياخده دليل عليك!

توقف سعداوي ليلتقط انفاسه، ثم اكمل:

— تاني حاجة: متخليش حد فيهم له سلطة كبيرة على الباقي!

يعني زيدان ده... لو لقيت شعبيته بتزيد، قوله محتاجك في مكان اهم واخترعله اي منصب بامتيازات مادية اكبر، لكن يحرمه من الشعبية وهات غيره... ولو بقي ليه شعبية نفس الكلام! وافضل دور الكراسي كده بين رجالتك!... ابويا بيسمي الحركة دي «شلوت لفوق»!... بس...

وخليهم يظهروا قدام اخواتهم هما اللي قمعيين، وانت اللي الحنون اللي لما بتعرف ان حد متضايق بتروح لحد عنده تشوف ازاي تسعده!

عبدون بذهول واعجاب شديد:

— ايه الدماغ دي يا سعداوي!... ما شاء الله انت نموذج! انا فعلا مش عارف كنت هعمل ايه من غيركم! ربنا يعمر بيتك ياشيخ

سمع عبدون طرقات على الباب، فقال:

— خليك معايا يا سعداوي... ادخل!

دخل مراهق من رجال زيدان وقال باحترام:

— عبدون بابا... زيدان بيقول لسعادتك كل حاجة جاهزة، وهو واقف في انتظار استقبال سعادتك على مدخل البدروم.

عبدون بوقار:

— طيب، روح انت دلوقتي.

عاد لسماعة التليفون:

— معلش يا سعداوي... معاك، كنا بنقول ايه؟

سعداوي:

— الاول قولي... سمعت اللي بيكلمك بيقولك البدروم! انا عرفت انك عملته سجن... فيه حاجة ولا ايه؟

عبدون بتبرير متلعثم:

— لا والله... انا هعمل زيارة هناك عشان الايتام يطمنوا ان اللي تحت دول مش بيتعاقبوا، انما بنعلمهم ازاي ينضبطوا ونصلح دماغهم!

سعداوي بضحكة خفيفة:

— برافو عليك!... اكيد مش محتاج اقولك: اللين ده فوق... انما تحت ادبح القطة!

العيال اللي في البدروم دي لو حسوا ان فيه قلبك بجنيه رحمة، مش هيسموا عليك!

عبدون:

— متقلقش... انا مش نازل حنية ولا حاجة، انا عندي ترتيب تاني خالص هايعجبك بس خليه مفاجأة.

سعداوي:

— طيب كويس...، خدلك بقي كام صورة وانت بتحضنهم، ولا حتى للأكل اللي بيتقدملهم... ودخّل قبل الزيارة احلى اكل للصور!

عبدون بأسف:

— ياريت والله!... بس معندناش كاميرا هنا.

سعداوي باستنكار:

— انت بتهرج صح؟! يعني الدار دي كلها مفيش فيها تليفون سمارت بكاميرا؟

عبدون:

— لا والله... البابا الله يرحمه كان دايما يقول: التليفونات هتطلعكم اغبية، مفيش احسن من الالعاب بتاعة زمان!

سعداوي متعجبا ساخرا:

— الله يرحمه!

عبدون:

— الرحمة تجوز على الحي والميت!

سعداوي:

— طيب... انت خلص زيارتك وممكن بعد بكرة ابعتلك عربية تجيبك عندي، وحط حد مكانك تثق فيه... المهم اي حد غير زيدان!

عشان ده لو عرف طعم كرسيك مش هيقوم من عليه تاني... اقولك زيدان ده هاته معاك، قال يعني «وفد رسمي»!

عبدون بمزاح مفاجئ:

— بالمناسبة... البابا حكلنا عن حاكم في التاريخ اسمه «قنصوه»، كان اما يسافر ياخد قضاة المذاهب الاربعة معاه... عشان هما بس اللي يعرفوا ينقلبوا عليه!

سعداوي بضحكة مدوية:

— طب خد بالك بقي... عشان قنصوه الغوري اللي اتحكالك عنه ده مات مقتول، وحتى ملقوش ليه جثة!... هههههه!

عبدون بمزاح متوتر:

— انت بتخوفني اجيلك يعني ولا ايه؟

سعداوي:

— لا تعالي بس وملكش دعوة... لحد دلوقتي انت في امان! وبقولك ايه... اما تيجي هاديك تليفون سمارت هدية فيه كاميرا عالية جدا عشان تصور زياراتك بعد كده... وبيني وبينك كده، انا بحب لعبة اسمها «ببجي» هعلمها لك ونلعبها مع بعض على طول!... يلا اقفل بقي عشان تلحق زيارتك.

اغلق عبدون الهاتف، وقف امام المرآة وهذب ملابسه وجسده، ثم خرج كالفاتحين. وجد رجال زيدان في انتظاره، ونزل ببطء نحو البدروم المظلم.

كان زيدان يقف عند المدخل منحني، يشرح لعبدون بأسلوب مسرحي كيف تم تنظيم المكان وتطهيره، بينما عبدون يستمع ويبدي اعجابه، والجميع يعلم ان كل ما يقال مجرد كذب وتجمل.

امر عبدون بفتح زنزانة النساء.

وقف امام الباب يتأمل الفتيات في الداخل، وقال في سريرة نفسه:

— «مش حرام الجمال ده يتدفن هنا؟ ... يلا، هي دي شؤون الحكم، وحاجة بتشيل حاجة!».

قطع تأمله صوت منى من اقصى الزنزانة، وهي تصيح بجفاء للفتيات:

— اقعدي منك ليها!... ايه؟ بتحترموا مين وخايفين منه اوي كده؟ هيحصل فيكم ايه اكتر من هنا؟!

اشعل صوت منى حرارة في قلب عبدون، فتقدم خطوات وقال بنبرة ناعمة:

— يا منى... ازيك؟

منى بحدة وغل:

— عايز ايه يا عبدون؟ جاي هنا ليه مش كفاية اللي انت عملته فيا؟

اشار عبدون للحراس بيده للابتعاد، ثم خفض صوته قائلا:

— يا منى... كان غصب عني! ده لمصلحة الدار... انت عارفة انا بحبك قد ايه، انت اقرب اخت ليا في السن!

منى بدموع قاسية:

— انا كمان كنت بحبك... بس عمري ما شوفتك اخ! منك لله يا عبدون، ضيعت كل حاجة!

عبدون بإنكار:

— لا يا منى... انا انقذت اهم حاجة... انقذت الدار، انقذت اخواتنا!

اشارت منى بنظرة ساخرة نحو السجينات:

— اخواتنا دول يا عبدون انقذتهم؟! ولا تقصد مظبوط الطفل الصغير؟ ... لو هو ده الانقاذ اللي تقصده تبقى مصيبة!

عبدون بثبات متصنع:

— يا منى... انا كنت بفكر زيك كده، لكن اما قعدت على كرسي البابا عرفت ان الحكم ليه احكامه، وان ممكن اضحي بشوية مننا عشان الباقي يعيش!

منى بصراخ وانفعال:

— شوية؟!... انت شايفنا شوية؟ ... روح يا عبدون روح!... يلا امشي، وخليك عارف انا لسه مش بكرهك... امشي يلا!

عبدون بصوت خافت:

— متقلقيش... هشوف وقت مناسب واخرجك.

منى بتهكم وصوت مرتفع اسمع الجميع:

— تخرجني؟!... لا يا خويا، مش عايزة اخرج! انا هنا ملكة وبحكم مملكتي... انما لو انت اللي خرجتني، هابقى جارية في مملكتك!

تغير وجه عبدون واشتعل غضبا وتوترا. اشار لزيدان بقسوة:

— اقفل الزنزانة دي!... ومتتفتحش تاني غير بأوامري، حتى لو بيموتوا!

نفذ زيدان الامر فورا، بينما توجه عبدون نحو سجن الرجال، وامر زيدان ورجاله ان يحاطوا به تحسبا لاي محاولة تعدي من بكر.

فُتح باب الزنزانة، فخرج الصغير «مظبوط» مسرعا وهو يبكي.

جلس عبدون على ركبتيه امام مظبوط، وبمشاعر حب حقيقية قال:

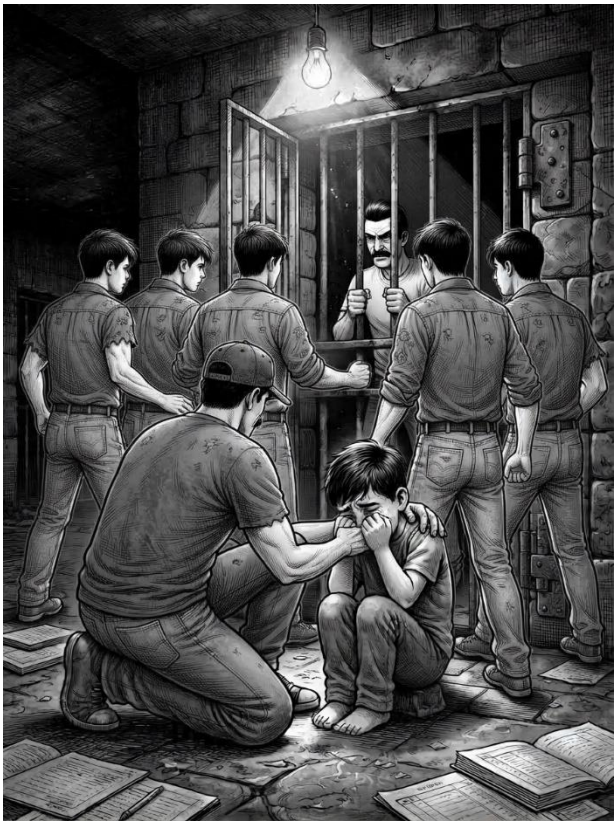
— فيه ايه يا مظبوط؟ خايف من ايه؟ متقلقش انا هنا عشانك.

مظبوط وهو يشير للداخل:

— بكر بيزعق في الكل، وانا خايف منه اوي!

لمعت عينا عبدون بلذة الانتصار. احتضن الصغير وقال:

— متخافش... محدش يقدر يعملك حاجة!



وقبل ان يكمل كلماته، وقف بكر خلف قضبان الزنزانة، يفصل بينه وبين عبدون اجساد حراس زيدان.

بكر بسخرية:

— ايه يا عبدون؟ بتعمل ايه هنا؟ ... ايه؟ خوفت من دقيقتين هتاف؟ ده انت خفيف اوي ياجدع! امال يعني مش باين عليك ليه؟

وقف عبدون ممسكا بمظبوط:

— لا يا خفيف... انا كده كده كنت نازل هنا النهاردة، واعلنت ده امبارح بأمارة السم الهاري الزيادة اللي نزلكم بالليل!

بكر:

— اه مش ده اكل الصدقة اللي جتلك برضوا سيبك من الكلام عن الشحاتة وقولي نازل ليه بقي؟

عبدون بشرور:

— عشان اشوفك عايش ولا ها تموت امتي!

بكر بحدّة:

— ها موت بعد ما اعمل ثورة عليك واجيبك مكاني هنا!

عبدون بضحكة استهزاء:

— ايوة ايوة... احلم، مش عيب برضه!

ثم وجه نظره للصغير مظبوط:

— ايه رايك يا مظبوط في موضوع الثورة ده؟ تحب تفضل هنا تساعد بكر وتقعد تعمل ثورة معاه... ولا الثورة كخ؟

نظر الطفل الصغير لبكر، ثم التفت لعبدون وقال ببراءة وخوف:

— لا... الثورة كخ!... وبكر وحش!

صاح عبدون بصوت عالٍ ومنتشٍ وهو ينظر لبكر:

— مممم!... الثورة كخ وبكر وحش ويع كمان!... بكر عمل ارهاب لطفل صغير!

دخلوا الارهابي ده تاني واقفلوا الباب عليه عشان يعرف يقعد في هدوء يخطط للكخ اللي عايز يعمله!...

هاهاهاها!... يلا يا مظبوط نطلع احنا نلعب في الجنينة!

مظبوط:

— يلا بينا!

عبدون:

— حاف كده؟ لا لا لا... ها تتصب عليا ولا ايه؟ بوسة وحضن وتقولي: مش هغلط تاني عشان متتعاقبش، ونطلع واحنا بنهتف سوا:

الثورة كخ وعبدون يع!...

الثورة كخ وعبدون يع!

احتضنه الصغير وقبله، ليعود عبدون ويمسك بيده ويخرج كالفاتح المنتصر،

ويأمر زيدان ورجاله بالصعود خلفه الى الساحة.

وبمجرد خروج عبدون من باب البدروم ومعه الصغير مظبوط، هلل الايتام الجائعون في الساحة:

— مظبوط!... مظبوط!

وقف عبدون بثقة امام الجميع، ونفذ نصيحة سعداوي بالحرف؛

قال بنبرة البطل المصلح:

— عرفتم بقي اني كنت بعلمه حاجة؟ ...

اسالوه اما نزل للمجرم بكر تحت عمل فيه ايه!

اسالوه مين اللي بيحبكم ومين اللي خايف عليكم، ومين اللي بيكرهكم!

ثم نظر للصغير مظبوط بلطف:

— او سيبوه يهتف هو بيكم... اهتف الهتاف اللي كنت بتهتفه تحت يا مظبوط!

تردد مظبوط، وارتبك امام نظرات الجميع، ثم هتف بصوت خائف ومتردد:

— الثورة كخ... عبدون يع!

ساد صمت ذهول بين الايتام؛ لم يدرك احد مغزى هذه المسرحية ولا السلوك الغريب للصغير.

قاطع عبدون سكوتهم بصوت صارم:

— انتم شكيتوا فيا وهاجمتوني!...

انا داخل دلوقتي المكتب اسعى على مصالحكم، وخلوا اصغركم مظبوط يحكي لكم اللي حصل معاه...

وصحيح: انا اديت زيدان مكافاة كبيرة واديته يوزع ع الرجالة مكافئات...

واشار بيده الى حراس زيدان المتأهبين:

— وده مش عشان حاجة، غير انهم فعلا طلعوا هما بس اللي خايفين ع الدار، ومنجروش ورا الاشاعات وكلام اهل الشر وهتفوا ضدي!

ونظر في عين سعيد بتحدٍ صريح، ثم قال لمظبوط:

— يلا يا حبيبي... العب براحتك!

اندفع مظبوط وارتمى فجأة في احضان «فاتن» الجميلة، وغطس راسه في ثيابها دافئة الحنان.

رفعت فاتن عينيها المرتجفتين ونظرت لعبدون؛ لم تكن عينها تحمل اعجابا، بل كانت نظرة اشمئزاز صامت وحسرة مبللة بالخوف.

لكن عبدون.. في عقله المريض والممتلئ بالبارا نويا والغرور، فسر خطا كعادته تلك النظرة وتلك اللمعة في عينيها بشكل اخر تماما.



غاب عبدون في خيالاته للحظات خاطفة، وهو يتأمل مشهد جسد فاتن وهي تحتضن الصغير، وهمس في سريرته:

«ياريتني كنت مكانك يا مظبوط... مسيرى في يوم اخد انا الحضن ده! واهي ابتدت تعجب بيا وبسلطتي».

ثم التفت مسرعا للحراس:

— يلا ورايا!

دخل غرفة البابا وخلفه زيدان، الذي قال بخشوع وارتباك:

— هو مش حضرتك قولتلي مقولش لحد على موضوع الفلوس؟

توتر عبدون لحظة، ثم رد بكبرياء متصنع:

— كنت بختبرك يا زيدان!... هو احنا بنعمل حاجة غلط؟ ده حقكم، انتم اللي بتحموا الدار!

زيدان:

— اللي تشوفه هو الصح.

عبدون بتعب:

— طب يلا بقي، عشان النهاردة اطول يوم عدا عليا... روح أطمن ان الكل اتعشى، ومتنزلش اكل لسجن الرجالة النهاردة، خليهم يتربوا! واقفل النور وانت خارج... انا همدد هنا ع الكنبة.

خرج زيدان واغلق الباب خلفه.

مدد عبدون جسده على الاريكة الجلدية العتيقة، وخلد الى النوم سريعا وهو متعجل لمواصلة حلمه الجميل؛ حيث يركب «ملكة الصحراء»، وتنظر اليه فاتن من بعيد بعيون ملؤها الاعجاب والافتتان!

الفصل العاشر:
احلام

في صباح اليوم التالي، لم يستيقظ عبدون -ككل صباح- على اصوات لعب الصغار؛ كان المكان هادئا على غير العادة.

نظر عبدون من شباك غرفته ليجد الجميع في مكانه؛ الاطفال في جنينة الدار لكنهم لا يلعبون، وسعيد يفترش كنبة عربة البابا القديمة، مخرجا قدمه من الشباك يداعب بها الرياح.

لا احد من الايتام، صغارا كانوا او مراهقين، يعلم اين اختفى الضحك، واين ذهب مرح الاطفال.

خرج عبدون من غرفة البابا ليجد زيدان ورجاله منعزلين عن اخوتهم في الجنينة.

عبدون:

ـــ يا زيدان، محدش صحاني بدري ليه؟

زيدان:

ـــ ياريس، سعادتك ما قلتش لي نصحيك امتى، وكمان سعادتك كنت نايم تعبان، فكلنا خفنا ندخل نزعجك.

عبدون:

ـــ خوفتوا؟! طيب... وانت اللي قلت للولاد بره ميطلعوش صوت؟

زيدان:

ـــ لا يا ريس، هما بقوا كده لوحدهم.

عبدون:

ـــ طب خلي حد يجيبلي قهوة، وتعالى، عايزك ضروري.

دخل عبدون غرفة البابا مرة اخرى، يقول في نفسه:

ـــ امال العيال دي هادية وساكتة ليه؟ ... عموما كويس يارب، يفضلوا كده على الاقل لحد ما اخلص زيارة سعداوي وارجع.

عاد زيدان مسرعا:

ـــ ياريس، في عربيات كتير بره على باب الدار، ومعاها حراسات، وبيقولوا عايزينك.

عبدون:

ـــ ما هو انا كنت عايزك عشان كده، انت والرجالة تستقبلوهم بسرعة استقبال محترم، ويقعدوا يشربوا حاجة في غرفة الضيوف.

يا زيدان، بعد ما تستقبلهم، تستعجل القهوة وتيجي بنفسك بسرعة يا زيدان، بسرعة.

زيدان:

ـــ حاضر، بس...

عبدون مقاطعا:

ـــ هو انت لسه هاتبسبس؟! بسرعة، اعمل اللي قولتلك عليه حالا، واي حاجة تانية تتاجل، نفذ يا زيدان من غير مناقشة.

يخرج زيدان مسرعا:

ـــ حاضر، حاضر.

عاد زيدان بيد ترتعش:

ـــ القهوة يا فندم، والضيوف في الصالون، سعادتك هاتستقبلهم؟ نجيب ليهم المشروبات هناك، ولا هاتقابلهم هنا؟

عبدون:

ـــ لا هنا ولا هناك يا زيدان، انا وانت هنخرج معاهم.

زيدان -بعد ان افترشت الابتسامة وجهه-:

ـــ نروح فين سعادتك؟ يعني انا هاركب العربية اللي بره دي؟

عبدون:

ـــ ايوة، هاتركبها وتتفسح كمان، هو انت قليل؟ انت دراع عبدون اليمين يا زيدان... بس المشكلة دلوقتي مين يبقى مكانا هنا.

زيدان:

ـــ سعيد اكبر واحد، والكل بيحبه، وهيسمع كلامه.

عبدون:

ـــ يارب ارحمني من الاغبياء اللي حواليا... يا زيدان يا حبيبي، احنا عايزين حد يحمي الدار دي من سعيد نفسه!

انت عارف لو خرجنا احنا الاتنين وسيبناها لسعيد بالذات يوم واحد، هيحصل ايه؟ مش هنعرف نرجّعها تاني.

شوف مين اخلص رجالتك ليا، حتى لو مش اقواهم، وياريت لو يكون مبيحبش سعيد، وادخله ليا حالا.

يخرج زيدان ويستدعي اهم رجاله "عناني"، ويصطحبه لغرفة عبدون، ليشير عبدون لزيدان بالخروج.

عبدون:

ـــ اقعد يا عناني، عايزك في مهمة عظيمة، اخترتك ليها رغم معارضة زيدان.

عناني:

ـــ اللي تكلفني بيه سيف على رقبتي ياريس.

عبدون:

ـــ انا خارج النهاردة في زيارة رسمية برة الدار، ممكن تاخد يومين تقريبا، والزيارة دي هتغيّر مستقبل الدار ومستقبل اخوتنا الغلابة اللي بره دول.

وانا بصراحة كنت ناوي اخلّي زيدان هو اللي يدير الدار في غيابي، بس شفت في عينه فرحة انه عايز يقعد على الكرسي ده -واشار لكرسي البابا الذي يجلس عليه-.

زيدان يا عناني مش فاهم ان الكرسي ده مبيجيبش غير وجع الدماغ، ولو سيبته هيفرح بالكرسي ويفضل يشخط وينطر في اخوتنا، ومش هياخد باله منهم ولا من الدار.

وانا بصراحة متابعك من بدري ومعجب بيك، وشايفك اجدع شاب هنا، فقررت اخد زيدان معايا، وانت اللي تاخد باله من مصالح اخواتك. بس توعدني انك تاخد بالك منهم اكتر من نفسك.

عناني:

ـــ معاليك، الدار فوق دماغي وفي عنيا، تروح وترجع بالسلامة يارب.

عبدون:

ـــ بس في حاجة مهمة انا خايف عليك منها خايف من رخامة زيدان، مش هقوله اي حاجة قلناها سوا دلوقتي؛ الكلام اللي يتقال بينا يفضل بينا... ومش هوصّيك تاني على الدار.

وصحيح، عشان متنساش حاجة: باب البدروم ميتفتحش وانا مش هنا غير لسببين: اولا لو حد جديد هيشرف جوه، وثانيا الاكل يدخل للبهوات اللي تحت.

عناني:

ـــ هترجع بالسلامة سعادتك، وتدّيني مكافاة اما تشوف كل حاجة زي الساعة... وانا مش عايز غير رضاك عليا ياريس.

عبدون ضاحكا:

ـــ ساعة ايه يا نصاب، دي عطلانة من قبل ما نتولد، هههههه. ومكافاتك مش الرضا بس، انت عارف البابا ايده

سخية على رجالته المخلصين اللي زيك. يلا نادي على زيدان وتعالَ عشان تتولى مهامك.

خارج السور، كانت سيارات سعداوي تقف كأنها كهف معدني املس؛ زجاج معتم يعكس صورة الصحراء التي تحاصر دار الامل وايتامها، وتنتظر البابا عبدون.

وخرج عبدون يرافقه حراس سعداوي، ينظر الصغار يمينه ويساره اليه بدهشة كبيرة؛ هذا المشهد غير مألوف، ولا حتى في عهد البابا الراحل.

وقف عبدون بالقرب من البوابة الرئيسية للدار موجها خطابه للأيتام:

ـــ انا خارج دلوقتي في زيارة رسمية، لو ربنا وفقني فيها هتغيّر شكل الدار، وتأمن حاجات كتير اوي -ووضع يده على كتف عناني- واخوكم الكبير هيبقى مكاني.

ومحتاج منكم كلكم قبل ما اخرج شوية حاجات:

اولا، تدعولي ربنا يوفقني عشانكم.

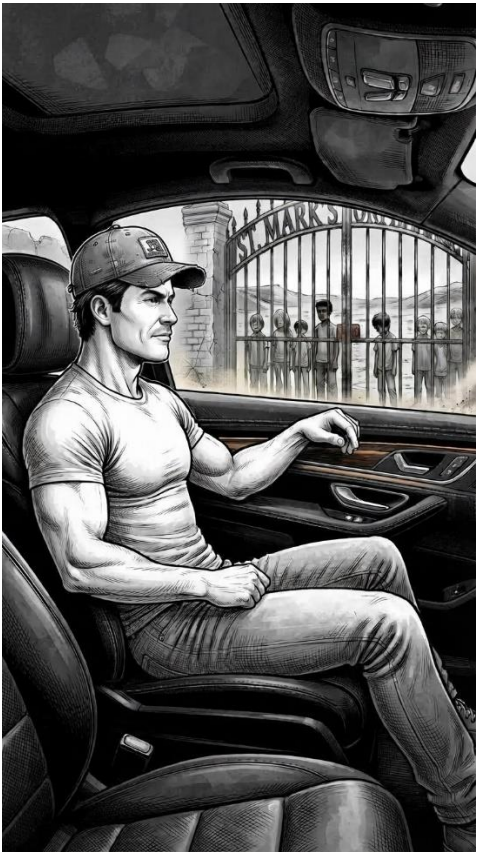
ثانيا، عايز تعهد منكم ان الدار تمشي زي ما اكون انا موجود بالظبط.

ثالثا، كلام عناني سيف على رقبة الكل، ولو حد عنده اعتراض على اوامره برضه تتنفذ، واما ارجع ابقوا قولّيلي شكاويكم.

رابعا، هتوحشوني، ودي هتبقى اول مرة اكون في مكان انتوا مش فيه.

وخرج عبدون من البوابة الحديدية، ففتح السائق الملكي الباب بصمت جليدي... ركب عبدون وبصحبته زيدان، ومع اغلاق الباب انقطع صوت الدار تماما. انقطع صوت الاطفال، وحفيف الشجر المحتضر، وحتى صوت نفَسه الذي يلازمه في كل حالاته.

اليتيم عبدون الان منبهر يتفحص المقاعد الجلدية الفاخرة، ينظر ليرى الدار مرة واحدة من مقعد الملوك، لم يرَ شيئا، وابتسم لانعكاس وجهه في الزجاج:



— هي دي العربيات، مش العربية الخردة اللي جوه دي.

وقال: ايه، البابا -الله لا يرجعه- كان بيقعد يلمّع فيها،

والعبيط سعيد عاملها مكتبه، قال يعني مكتب رئيس مجلس الادارة.

ثم ذهب في حلم طال رحلته بأكملها، يتخيل الحراسة حراسته لا حراسة سعداوي، والسيارة "ملكة الصحراء".

اما زيدان، فمنذ ان علم بمصاحبة عبدون في رحلته وركوب السيارة، دخل الى عالمه الذي لم يعد منه حتى الان.

وصل عبدون واخوه لدار سعداوي ليجدا استقبالا كاستقبال الفاتحين.

لم تكن دار سعداوي مجرد مبانٍ وجنينة، كانت الدار عنوانا للثراء؛ ابواب طويلة مغطاة بشرائح الماء المذهب، صالونات يمتد بلاطها كبحيرة عظيمة، وموائد طعام يحيط بها خدم بقفازات بيضاء يتحركون كالأشباح.

جلس عبدون على طرف كرسي عملاق، يتناول قطع اللحم الشهية بأصابع ترتجف، وعيناه تسرحان في الاسقف المرسومة.

وفي تلك اللحظة، رنّ في اذنه صوت شيخون كانه يجلس خلف ظهره مباشرة:

ـــ انت مفكرتش تغيّر الأوضة دي؟

تخيل عبدون نفسه يجلس في نفس هذا البهو، لكن في دار الامل.

تخيل خشب غرفة البابا البالي وقد تحول الى جرانيت براق.

مال عبدون على سعداوي الذي كان يمضغ طعامه بشراهة مستفزة، وقال بنبرة حاول ان تكون ثقيلة:

ـــ حلوة الدار عندكم يا صديقي، ليها هيبة كده.

ابتسم سعداوي ابتسامة غامضة، وترك ملعقته بهدوء:

ـــ الشكل الخارجي للدار، وحتى العفش والتحف والانتيكات، كل دي حاجات مهمة يا عبدون، بتخلق الهيبة قبل حتى ما تتكلم.

اعذرني، مش قصدي، بس تفتكر لو كنت جيت لقيتني قاعد على مكتب ملخلخ وكرسي مشقق، كنت هتحس بنفس الهيبة دي؟

عبدون في نفسه:

ـــ نحمد ربنا انه مجاش لحد دلوقتي، الدار عندي كانت هتبقى فضيحة.

ثم نظر عبدون في وجه زيدان الذي لا يكاد يسمع احدا ولا يرى غير الطعام الوفير امامه، وقال بصوت عالٍ:

ـــ نحمد ربنا، وشكرا يا صديقي على الغداء العظيم ده، والمرة الجاية نتغدى عندنا في دار الامل.

سعداوي بضحكة صفراء:

ـــ شرف لينا يا عبدون. بينا على المكتب بسرعة نتونس شوية، عاملك مفاجأة -واشار بعينه على زيدان الا يحضر الحديث-.

ساعد زيدان عبدون -باندماجه في الطعام- بصوت حاد:

ـــ يا زيدان، خلاص كده، ممكن تستنّاني في الصالون.

دخل سعداوي وعبدون المكتب، وبعد انبهار عبدون بالمكتب ومحتوياته، جلس وعيناه هائمتان في كل تفصيله.

سعداوي:

ـــ انت ايه اللي انت جايبه معاك ده؟ مش هنعرف ناخد راحتنا في الكلام، مش كنت تقولّي الاول؟ انا كان عندي ترتيبات مهمة وانت كده بوّظتها.

عبدون في نفسه:

ـــ هو مش هو اللي قالي جيبه معايا، ولا كان شيخون؟ ولا انا اللي بيتهيألي؟

ثم بصوت مسموع:

ـــ اسف يا صديقي، بس انت عارف التوترات اللي عندي في الدار، وزيدان الوحيد اللي فيها قوي، هو المساعد بتاعي، بس قلت احتياطي اجيبه معايا.

اهمل سعداوي حديث عبدون وقال:

ـــ قولّي انت ايه اكتر حاجة محتاجها في دار الامل وناقصاكم.

عبدون:

ـــ الفلوس... الفلوس... الفلوس.

سعداوي ضاحكا:

ـــ لا، غير الفلوس، مش كنت عايز تجدد الدار وتخليها زي اللي انت قاعد فيه ده؟ طب بلاش، مش قلت لشيخون انك عايز تجيب "ملكة الصحراء"؟

بلاش، مش عايز تتعرف على دور الايتام الاغنياء اللي في الجهة التانية ناحية الغرب؟

عبدون بتلهف:

ـــ طبعا عايز، قولّي انك هتساعدني في الموضوع ده.

سعداوي:

ـــ هساعدك؟!

انا ساعدتك خلاص يا صديقي، وقبل ما توصل كان وفد رسمي من دور ايتام الغرب وصل، ومستنيين دلوقتي في قاعة الاجتماعات، ومتقلقش، هما عارفين كل حاجة.

وانا وشيخون متفقين معاهم على كل حاجة، حتى السلفة اللي عايز تاخدها منهم، بس اهم حاجة متنساش كلام شيخون، لا بتاع انك مسيطر ولا بتاع التنمية المستدامة.

وصحيح، اكيد المفجوع اللي جاي معاك ده مش هايحضر.

عبدون:

ـــ لا، متقلقش، انا بقيت خبرة دلوقتي.

وبجد، انا مش عارف ارد عليك، اقولك ايه؟ انت اجدع صديق في العالم، وبالنسبة لزيدان اعتبره هواء، مش موجود.

وتوجه الزعيمان الى قاعة الاجتماعات.

وفي تلك القاعة المغلقة، حضر ممثلو عدة دور ايتام من الغرب، بملامح جادّة وملابس رسمية انيقة.

وبدون ترحيب كثير، انخرطوا سريعا في العمل.

رئيس احد الوفود بلغة عربية متعثرة:

— نحن نعتزّ كثيرا بالبابا السابق، كان شريكا وفيا على مدار ثلاثين عاما، وقد اسفنا على غيابه.

ونعلم جيدا وضع دار الامل، ونتطلع الى مزيد من الاستقرار بالدار، ومتفائلون بتولّي قائد قوي وشجاع مثلك للمهام.

عبدون:

— من ناحية الاستقرار متقلقوش، رغم ان الدار عندي كبيرة اوي، وكلها شباب كبيرة، والسيطرة عليها مش سهلة، لكن انا محقق نجاحات كبيرة.

وده مش بس عشان خايف على اخواتي، انا مدرك مخاطر انهيار دار فيها العدد ده.

وقادر اتحمل مسؤولية الايتام اللي عندي، واتحمل مسؤولية حماية الاشقاء في المنطقة عندنا، ومصالح الغرب اللي يهمه استقرارنا.

نظر سعداوي بإعجاب لعبدون:

ـــ واحنا اشقاؤه، ونضمن عبدون في اي حاجة.

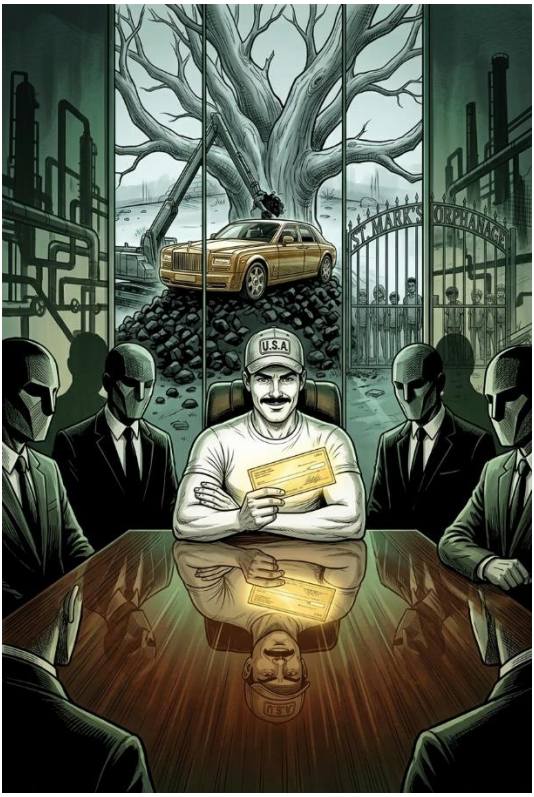
وعرض وفد الغرب الصفقة على البابا عبدون: قرض ضخم يمكّن عبدون من تطوير دار الامل وتنفيذ مشروعات انتاجية تحقق التنمية المستدامة.

وصرحت الوفود، على استحياء، انهم متفهمين خطوة شراء السيارة الاسطورية "ملكة الصحراء"، كي يحافظ عبدون على "مظهر الدار والاستقرار"، لكن ما يحصل عليه من الاشقاء، اما اموال الغرب فهي للتنمية المستدامة.

احد رؤساء الوفود بلغة عربية سليمة:

ـــ احنا بنسلفك عشان نضمن ان الدار ما تقعش يا عبدون... بس الفلوس دي ليها ضمانات ومواعيد سداد،

ركّز وخد بالك، احنا عندنا رغبة في كسب صديق لثلاثين سنة قادمة.



وانصرف الوفد بعد توقيع عبدون دون حتى ان يقرا اتفاق القرض وشروطه، واستلم شيكا بمبلغ القرض وهو في قمة النشوة.

كان في الزاوية وفد اخر يجلس بعيدا يراقب كل ما يحدث بحذر، وبدا عليه الاعجاب بعبدون.

لم يكن يملك عبدون رفاهية السؤال عمّن هم، او لماذا يجلسون بقاعة الاجتماعات اثناء انعقاد اجتماعه مع دول الغرب.

كان عبدون عالقا في احلام اليقظة، يرى نفسه راكبا "ملكة الصحراء"،

حتى ايقظه سعداوي:

— يلا بقى عشان نحل كل مشاكلك -واشار الى الوفد الغامض-.

سلّم عليهم عبدون بحرارة، فبادله الوفد نفس الحرارة والترحيب، ولاحظ عبدون اتقانهم للغة العربية كأنهم عرب.

سعداوي:

ـــ دول بقي يا سيدي اللي هيحلوا كل مشاكلك، وتأمنهم ويأمنوك، انتوا الباب في الباب، رحّب معايا يا عبدون بـ "ولاد عمنا".

عبدون مرتبكا:

ـــ اهلا اهلا، شيخون كلمني عنكم كتير، وكنت في انتظار مقابلتكم والتعرف على اشخاصكم بفارغ الصبر.

رئيس الوفد:

ـــ بس احنا مكنش عندنا نفس الشغف نتعرف عليك.

يصمت عبدون ويتلعثم ويتعرق، وينظر لسعداوي يستجديه بنظراته ان يتدخل.

يستكمل رئيس الوفد حديثه:

ـــ عشان احنا اصلا نعرفك ومتابعينك كويس.

فيضحك الجميع، ويبتسم عبدون ابتسامة مجاملة، وعبدون في نفسه:

ـــ ابو ام تقل دم امك!

رئيس وفد "ولاد العم":

ـــ شوف يا عبدون، احنا ناس عمليين، ومايهمناش الفلوس، يهمنا الاستقرار، ومعلوماتنا بتقول انك تقدر تضمن لينا الاستقرار اللي محتاجينه.

وخد بالك، احنا عمرنا ما نبيع صديق لينا، والبابا اللي قبلك كان صديق لينا، بس دماغه كانت مقفولة في حاجات ومتعاون في حاجات تانية، ورغم كده وجوده كان بطمننا عشان الاستقرار.

عرفنا انك محتاج غاز، وده اعتبره حصل، والغاز هيوصلك على طول، كل ما تحتاج.

ولو احتجت مساعدة في علاقاتك في اي حتة هنا في الاقليم، في الشرق ولا الغرب، احنا بنساعد الاصدقاء الاوفياء اللي زيك.

عبدون:

— متقلقوش خالص، الايام هتثبت انكم كسبتوا النهاردة صديق مخلص، بس كنت عايز اسال، هنمضي وننفذ ده امتى؟

رئيس الوفد:

— اولا، احنا مش بنقلق.

ثانيا: الغاز هيوصل دار الامل قبل ما انت توصل.

ثالثا: خليك عارف، احنا لا الغرب ولا سعداوي ولا شيخون، يعني مبنديش فلوس هباءً ولا شيكات في نفس الاجتماع وانت قايم زي الجماعة بتوع الغرب دول.

النهاردة الغاز وصل قبل التوقيع عشان ظروفك الاستثنائية، لكن لازم تعرف ان سياستنا تاخد الثمن الاول.

عارف يا عبدون، ايه اكتر حاجة طمنتنا النهاردة؟

عبدون:

ـــ ايه يا فندم؟

رئيس وفد "ولاد العم":

ـــ اولا: عشان انت مسالتش حتى على اسمائنا.

ثانيا: عشان جبت معاك هنا زيدان، وحبست الواد بكر، وكمان عشان عجبتنا سياستك مع رجالتك، انت ماشي صح، وهتحقق الاستقرار. بس شوف بس هتعمل ايه مع سعيد.

انتهى الاجتماع، وانتقل عبدون الى جناحه الملكي في فندق مؤمَّن، استلقى على السرير الحريرى، وفي نصف غفوة، شعر بالسقف يدور، تساءل:

ـــ هما ازاي الناس دي عارفة كل حاجة كده، حتى اللي بيحصل بيني وبين اخواتي؟

مش مهم، مش مهم، المهم مشينا وخدنا الشيك، وبكرة نركب "ملكة الصحراء".

وقبل ان يدخل في نوم عميق، تذكر كلام سعداوي عن ادارة الدار والوقيعة بين رجاله وايتام الدار، ثم كلام شيخون، ثم شروط "ولاد العم"...

فتح عينيه وتمتم بسخرية مرّة:

ـــ ده على كده البابا وسعداوي وشيخون، محدش فيهم عبقري ولا حاجة، في ناس تانية هي اللي سايقة الكل، ومفيش حد فهلوي. مش مهم، مش مهم.

وتذكر زيدان:

ـــ ايه ده، انا نسيتك انت خالص! برضه مش مهم، مش مهم، اكيد سعداوي هيتصرف، احنا ضيوفه برضه.

تقلب عبدون على جانبه الاخر، واغمض عينيه المجهدتين وهو يتمتم مرة اخرى:

ـــ يلا، مش فارقة مين سايق ومين متساق، المهم اني نايم دلوقتي على سرير حرير... يلا، محدش واخد منها حاجة.

لم يكن يعلم عبدون ان زيدان، الذي اهمل السؤال عنه منشغلا بأحلام اليقظة، كان في ذات اللحظة يجتمع مع وفد "ولاد العم" هو الاخر، بترتيب من سعداوي وبأمر "ولاد العم"... ولا نعلم ما دار في هذا الاجتماع.

وعلى الجانب الاخر، في دار الامل، كان هناك شيء ما يحدث؛ لم يكن هدوء الاطفال في اخر صباح لعبدون في الدار نتيجة لليأس، او قلة الطعام، او غياب البابا، او حتى اعتقال بعض الاخوة.

لكن كل هذا، بالإضافة الى عدوى ما، كانت تنتشر في الاجساد تدريجيا دون ان يلاحظها احد.

وبدا الاعياء يشتد بدرجات وبسرعة متباينة؛ البعض لا تبدو عليه علامات الاعياء حتى الان، والبعض ارتفعت درجة حرارته، وغيرهم ظهرت بقع حمراء على جلودهم، الا ان الصغيرة "احلام" كانت اسرع من افترستها العدوى، واحتضنتها فاتن.

فاتن:

ـــ يلا يا احلام، قومي عشان دورك في تنضيف ارضية المطبخ.

احلام:

ـــ انا مش قادرة يا فاتن اقوم، ممكن كمان ساعة.

فاتن:

ـــ لا ساعة ولا اتنين، ولا هتقومي اصلا، انا عملت كل حاجة، وبنكّشك بس.

احلام:

ـــ فاتن، عايزة اسالك سؤال؛ هو انا السنة اللي فاتت لما قلتلك "يا ماما"، زعلتى ليه وقولتيلي "قوليلي يا فتون"؟ هو انتي مش بتحبيني؟

فاتن:

ـــ السنة اللي فاتت؟ يااه، ده انتي قلبك اسود يا جزمة! انتي السنة اللي فاتت كنتِ لسه بتهتهي، ومش بتتكلمي، وانا كمان كنت صغيرة، مش انتي كبرتي بس، انا كمان كبرت، وممكن تقوليلي "ماما فاتن".

احلام:

ـــ هو احنا ليه كلنا مفيش عندنا ماما؟

فاتن:

ـــ مين قال كده؟ انتي رجعتِ في كلامك، مش هتقوليلي "ماما" ولا ايه؟

احلام:

ـــ طب لو انتي ماما، مين بابا يعني؟ بكر ولا عبدون ولا زيدان ولا عناني ولا البابا اللي مشي؟

فاتن:

ـــ انتي عايزة مين فيهم؟

احلام:

ـــ بصراحة، ولا واحد، انا عايزة سعيد.

فاتن:

ـــ اخ، ربنا يستر، انتي لو قلتي الكلام ده قدام عبدون، سعيد هيختفي ورا الشمس، وفي يومها هيبقى في البدروم.

احلام:

ـــ هو الشمس في البدروم؟

فاتن -تتذكر كل اخوتها في البدروم-:

ـــ مش الشمس بس، ده الشمس والقمر والنجوم وكل حاجة كانت ممكن تنوّر حياتنا.

تلاحظ فاتن ان عيني احلام قد اغلقتا، تستشعر حرارتها، وتخرج مسرعة لإحضار دواء مناسب، تبحث في كل مكان، لا تجد، وتلجا على الفور لسعيد.

فاتن:

ـــ سعيد، الحقني، احلام سخنة اوي وبتهذي، ومش عارفة اتصرف.

سعيد:

ـــ خلّي سبع البرمبة عناني يتصرف، ولا استنّي البابا المبجل عبدون يجي يملّس عليها ببركاته وتخف.

فاتن:

ـــ ده بجد يا سعيد، انت شايف ان ده الرد المناسب لما اقولك اختك تعبانة ومفيش علاج؟

سعيد:

ـــ مناسب يا فاتن، عشان انا "سعيد" مش دكتور سعيد ولا البابا سعيد.

يا فاتن، ده انا ما وقفتش جنب حد في الدار دي عشان اساعده، الا في اخر اليوم هتف "يعيش عبدون".

بقولك ايه يا فاتن سيبيني والنبي، انا فيّا اللي مكفيني، انتي بنت وبتفهمي في الحاجات دي اكتر، انا معنديش حاجة اعملها.

لم تكن الصدمة على فاتن بسيطة لتتمكن حتى من ادراكها، ورحلت من امام سعيد مسرعة في اتجاه غرفة البابا، ودخلت دون استئذان لتجد عناني يجلس على كرسي البابا، ويضع قدميه على المكتب، وباستعلاء:

ـــ انتي ازاي تدخلي من غير ما تخبطي؟

فاتن:

ـــ مش وقته يا عناني، احلام تعبانة ومفيش دواء.

عناني:

ـــ طيب، اولا مينفعش تقوليلي "عناني" حاف كده، انا دلوقتي البابا، حتى لو مؤقتا.

ثانيا: تخبطي على الباب بعد كده.

ثالثا: وانا اعمل ايه يعني لأحلام؟

فاتن:

ـــ اتصرف يا عم البابا، دوّر على دواء هنا، او هات فلوس وانا اطلع ادوّر على طريقة نجيب دواء من برّه الدار، او طلّع اختنا منى من البدروم، هي اللي بتعرف تتصرف في الحاجات دي.

عناني:

ـــ اولا، مفيش فلوس.

ثانيا، محدش هيطلع من الدار.

ثالثا، زي ما عبدون قال، البدروم يتفتح للأكل ولدخول مشاغبين جداد، يعني من الاخر، لو عايزة منى تاخد بالها من أحلام، الحل الوحيد احلام اللي تنزلها.

خرجت فاتن مسرعة لتجد الحرارة والاعياء يشتد على احلام التي تبدو قد غابت عن الوعي، تحاول فعل اي شيء بلا فائدة، لتعود الى عناني ومرة اخرى تدخل متلهفة دون استئذان:

ـــ يا عناني، خلاص، نزّل احلام لمنى تتصرف.

عناني:

ـــ انتي تاني وبرضه من غير ما تخبطي على الباب؟! طيب، انا هسامح المرة دي كمان بس عشان احلام، روحي انتي وانا هبلّغ تعليماتي للرجالة تنزلها البدروم.

وصل رجال عناني للصغيرة احلام، وحملوها متجهين نحو البدروم، وسعيد وفاتن يشاهدون متأثرين عاجزين عن فعل شيء، وما ان دخل رجال عناني للبدروم حتى عادوا الى فاتن وسعيد:

ـــ احلام ماتت.

انهارت فاتن، ووقف سعيد لا يقوى على النطق، وخرج رجال عناني بجثمان الصغيرة، واختطفته فاتن في حضنها.

احد رجال عناني لسعيد:

ـــ عناني بيقولك احلام لازم تتدفن، وبيقولك ادفنها انت بسرعة عشان المرض ميتنتشرش في باقي الاخوات.

فاتن لم تسمح لرجال عناني ان يكملوا، مقاطعة:

ـــ سعيد يدفنها؟! سعيد اللي رفض يعالجها؟! سعيد الجبان

-وتنظر لسعيد قائلة-:

انت عارف يا سعيد ان اخر كلمة قالتها كانت اسمك، انت طب عارف انها كانت نفسها تقولك "يا بابا"... كويس ان احلام ماتت قبل ما تتصدم فيك زي ما انا اتصدمت... انت يا سعيد متستحقش حتى تدفنها.

سعيد ينهار، يضع جبينه على الارض في وضع السجود:

ـــ سامحيني يا احلام، سامحيني يا فاتن.

فاتن:

ـــ لا يا سعيد، مش هسامحك، ومش هتاخد فرصة تسكّن ضميرك بدفنها.



وينهر الجميع، ويُحمل جسد الصغيرة لدفنها في حفرة في الحديقة الخلفية، وتجلس فاتن فوقها لتبكي بكاء ام فقدت طفلتها.

غاب عبدون ورفيقه زيدان اكثر من المتوقع، ربما خاضا رحلة جديدة لجلب "ملكة الصحراء".

وفي المقابل، كانت العدوى المرضية تنتشر بين الصغار، ورجال عناني مشغولون فقط بالسيطرة عليهم وحماية الدار ونظام الدار.

عادت فاتن لسعيد:

ـــ سعيد، انا مش جاية اقولك متزعلش، ولا جاية اقول اني سامحتك، بس جاية اقولك اخواتك كلهم تعبانين، عايزاك تساعدني ونفكر سوا نعمل ايه.

سعيد:

ـــ اهم حاجة دلوقتي نفصل الكويس عن المريض -ثواني وراجع- ويتوجه نحو غرفة البابا.

سعيد:

ـــ يا عناني، اخوتنا تعبانين، لازم نعمل حاجة.

عناني -وعيناه تدمعان-:

ـــ نعمل ايه طيب يا سعيد؟ انا مقهور، وعبدون سابلي الدار في وقت صعب اوي.

ويكمل: انصحني يا سعيد، نلحقهم ازاي؟

سعيد:

ـــ اولا، محتاجين نفصل المريض عن السليم، ومحتاجين الكبار يجازفوا ويدخلوا، يعملوا كمادات عشان الحرارة تنزل، بس ده فيه مخاطرة عشان العدوى، وكمان محتاجين منى والبنات اللي في البدروم معانا.

عناني:

ـــ لا مقدرش اخرّج حد من البدروم، بس اقدر اني ابقى اول واحد يدخل يعمل كمادات، ويهتم بأخوتنا، حتى لو ها تعدي واموت. وخد يا سعيد، دي الفلوس اللي ادهالي عبدون ليا، اتصرف، وحد يخرج يدوّر على اي طريقة نجيب علاج.

سعيد:

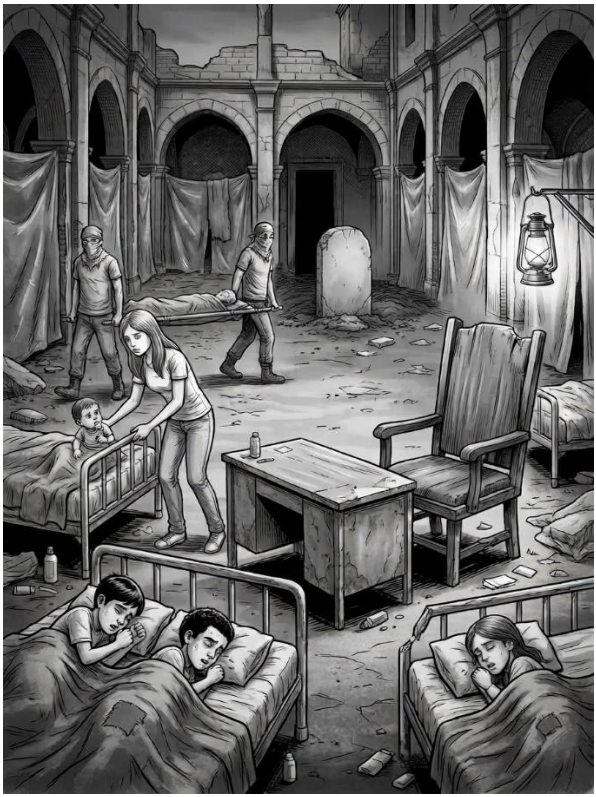
ـــ من غير اختنا منى، الفلوس دي ملهاش لزمة، حتى لو عرفنا نوصل لمكان نجيب منه دوا، احنا مش عارفين محتاجين ادوية ايه.

عناني:

ـــ مقدرش يا سعيد اكسر كلام عبدون.

انا هغيّر نظام الدار، بدل عنبر بنات وعنبر ولاد، هانخليهم عنبر مرضى وعنبر كويسين.

وانا اللي هابقى مسؤول عن عنبر المرضى، وفاتن تبقى مسؤولة عن الاطفال السليمة، تطمّنهم.



سعيد:

ـــ انت كده هتعمل كل حاجة صح، بس مش هتنقذ اخواتك طول ما انت خايف من عبدون ومش عايز تطلّع اختك منى.

عناني:

ـــ انا بنفّذ تعليمات عبدون، حبا في الدار وفي اخوتنا؛ لو مفيش نظام، حتى لو اخوتك خفّوا، الدار هتقع.

انا بحفظ النظام عشان الاصحاء، وانت عايزني اوقِع النظام عشان المرضى؟ نفّذ اللي انا امرت بيه يا سعيد.

نفّذ الجميع تعليمات عناني، الجالس الان في غرف المرضى يداويهم بيده، حتى ظهرت عليه اعراض المرض وتحمّل ولم يظهر ذلك.

فاتن، بعد ان مرّت على كل المرضى، اتجهت تجلس مع الاطفال شبه الاصحاء من غير المرضى، تحكي لهم قصصا تضحكهم وقلبها يتمزق.

وسعيد، الذي لم يجد ما يفعله، ظل يراقب، يتحرك بسرعة الصاروخ بين فاتن وعناني ورجال عناني دون ان يفعل شيئا.

كان في ذات التوقيت عبدون ورفيقه زيدان ينهيان الرحلة التي تحولت من زيارة لسعداوي الى جولة شحاتة واستدانة من كل دور الايتام؛ اشقاء، و"ولاد عم"، وشرق وغرب.

كانت اخر محطات جولة عبدون المكوكية لدى الشقيق شيخون، وقبل ان يودّعه، اجتمعا اخر اجتماع رسمي بين عبدون وشقيقه شيخون.

شيخون:

ـــ ايوة يا سيدي، على اللي راجع الدار بـ "ملكة الصحراء" وبشيكات ملهاش عدد، ده انت كده معاك فلوس اكتر مني.

عبدون:

ـــ العفو يا شيخون، احنا فين وانتوا فين.

شيخون:

ـــ انا اصلا كنت عايزك، قبل ما تمشي، في موضوع:

في بداية ازماتك كنت سلفتك فلوس، وانت عارف اني بحبك ازاي، ودي لو فلوسي كنت سبتهالك طبعا، بس دي حقوق الايتام اللي عندي.

عبدون:

ـــ بس انا اشتريت "ملكة الصحراء"، ولو سددت الفلوس دي دلوقتي، مش هعرف اجدد الدار، والعيال هتزعل، ومش بعيد يخلّوا سعيد البابا.

شيخون:

ـــ وهو احنا نرضى بده برضه؟ بص يا سيدي، فاكر الشجرة اللي كنا اتفقنا ان اول قطفة منها ليّا؟ ايه رايك تبيعها ليّا بالفلوس دي.

عبدون:

ـــ انا كنت ناوي اصلا اقطعها هي والشجر اللي حواليها عشان اجدد الدار، وكنت هعمل جراج لـ "ملكة الصحراء" مكانها.

شيخون:

ـــ حلو اوي كده، انا عندي عرض ليك... انت خلّي الشجرة مكانها، وانا هشتريها وهي مكانها، وهادفع مرتبات للي هياخدوا بالهم منها، واهو يبقى اسمك خلصت من دينك ووفّرت فرص عمل.

وكمان هاخد منك العربية الخردة اللي عندك، احطها في المتحف زي ما اتفقنا، بس ده طبعا في السر.

وياسيدي، عندي ليك مفاجأة: باقي الشجر اللي هتقطعه نحوّله فحم، وانا اتصرف في بيعه ليك، وكده تبقى دلّعت اخواتك وغرقتهم فلوس بلا سعيد، بلا قرف.

تلمع عينا عبدون، ليقبّل شيخون، ويخرج لزيدان الذي ينتظره بالخارج، ويستقلّ "ملكة الصحراء".

الفصل الحادي عشر:
القصر والقبر

عاد عبدون من رحلته... حاملا لا مجرد حقائب، بل موكبا عملاقا.

تتقدمه السيارة "ملكة الصحراء" تشق غبار الصحراء التي تحاصر الدار.

هيكل ضخم، نوافذ سوداء، وصوت محرك يزار كحيوان مفترس.

صوت الة التنبيه يرتفع احتفالا بعودة عبدون وزيدان مستقلَّين سيارة البابا الجديدة.

وتتبعهم عدد من السيارات المحملة بالخيرات والمعدات، وترافقهم سيارة عملاقة مخصصة لنقل السيارات.

دخل عبدون الدار ينظر اليها باشمئزاز بعد ان انهى جولته المكوكية.

كان عبدون ينتظر استقبالا كبيرا وانبهار الايتام بـ "ملكة الصحراء" وملابس عبدون وزيدان الفاخرة، او على اقل تقدير بالخيرات التي تملا السيارات.

عبدون على البوابة، وخلفه زيدان، ويستقبلهم يتيمان فقط من رجال عناني

عبدون:

ـــ عناني فين، وما جاش هنا بنفسه ليه؟

رجل عناني:

ـــ القائد في عنبر المرضى.

عبدون:

ـــ عنبر مرضى ايه؟! هو انتوا قلبتوا الدار مستشفى وانا مش هنا؟ وسّع وسّع.

بعد ان نهر عبدون اخوته من رجال عناني، توجّه لزيدان قائلا:

ـــ خش يا زيدان ظبط الدنيا لحد ما اشوف قصة عنبر المرضى ده.

وتقدم عبدون نحو العنبر، واثناء مروره بالجنينة وجد فاتن تجلس وحولها الصغار، وما ان شاهدت عبدون توجهت له مسرعة.

فاتن:

ـــ يا عبدون، انت ايه اللي اخّرك؟ احنا في مصيبة.

عبدون:

ـــ مصيبة ايه يا فاتن؟ وباقي اخوتنا فين، وايه قصة عنبر المرضى دي؟

فاتن:

ـــ معرفش، بس فجأة اخواتك بدأت تظهر عليهم اعراض غريبة، سخونية وبقع حمراء على الجلد، وانا مش بفهم في الحاجات دي، كانت دايما منى اللي بتعملها، وكلّمنا عناني يطلّعها بعد موت احلام لكنه رفض، ومش عارفة...

قاطعها عبدون:

ـــ ايه، احلام ايه ماتت ازاي؟! انتوا بتهزروا؟ يعني اغيب كام يوم ارجع الاقي الدنيا خربانة؟

ويدخل عبدون لغرفة البابا ويشير لزيدان:

ـــ نص دقيقة، انت وعناني تبقوا قدامي.

ينصرف زيدان ليعود مسرعا برفقة عناني الذي بدأت تظهر عليه اعراض المرض.

عبدون بغضب:

ـــ عناني احكيلي ايه اللي حصل وانا مش هنا.

وابلغ عناني عبدون بكل ما حدث تفصيليا، ولاحظ عبدون اثار العدوى عليه وهو يتكلم.

عبدون:

ـــ طيب انت مين سمحلك تغيّر نظام الدار وتخلي عنبر واحد فيه بنات وولاد مع بعض؟

وكمان هو انا مش قلتلك اللي يحصل بيني وبينك ميطلعش برّه؟

ليه قلت لسعيد اني مديك فلوس؟ مش عايزها كان المفروض تقولي شكرا ومتاخدهاش، مش تاخدها وتديها لسعيد.

عناني يتلعثم:

ـــ سعادتك مش عارف الاول...

عبدون مقاطعا:

ـــ ابعد بس، ورا شويه، مش ناقصة عدوى ومرض.

وشوف يا عناني، في الطبيعي كنت هاعاقبك على اللي ده عقاب كبير، لكن في حاجة واحدة تشفع لك، وهي انك التزمت ومخرجتش حد من البدروم التزمت بأوامري في اصعب الظروف.

يلا مشِ مهم دلوقتي، وخلاص سلم مهامك لزيدان. واقعد يا زيدان، عايزك.

بعد ان خرج عناني وتوجه دون انتظار اوامر احد الى عنبر المرضى، جلس عبدون لزيدان:

— يا زيدان، عايزك تنزل للسواقين، وتاخد الاخ سعيد اللي قاعد ملوش لازمة ده وباقي اخواتك اللي قاعدين مع فاتن، وتنقّلوا كل حمولات العربيات لجوه.

وتخلّي العمال يخشّوا يرفعوا العربية الخردة، وخلّي "ملكة الصحراء" برّه لحد ما انزل اشوف هاركنها فين.

يبدا زيدان بتنفيذ التعليمات؛ سعيد واخوته لم يفرح آيا منهم كالعادة بخيرات الاعانات، كما لم يرفض أيا منهم اوامر زيدان.

وبالتزامن مع ذلك، كانت رجال شيخون تتحرك في كل الاتجاهات؛ البعض يفرّغ السيارات، والبعض ينصب متاريس حول الشجرة التي اشتراها سيدهم، وبعضهم يساعد شاحنة نقل السيارات في الدخول من بوابة الدار.

سعيد لزيدان:

ـــ احنا مش فاهمين هو في ايه، ومين الناس دي، وليه العربية دي داخلة، وليه في متاريس بتتحط في الجنينة مكان ما الاطفال بتلعب؟

زيدان:

ـــ دخّل انت بس الاكل، وهفهّمك كل حاجة.

دخل زيدان مسرعا لعبدون:

ـــ يا ريس، واضح اننا عندنا مشكلة، سعيد بدا يناقر فينا وبيسال على المتاريس.

عبدون:

ـــ متقلقش، انا في دماغي ترتيب يظبط الدنيا.

اخرج انت بس وحاول تلطّف الامور مع اخواتك اللي في الجنينة، وعايز اول حاجة تعملوها هي نقل العربية الخردة.

ولازم سعيد يعترض عليهم، ولو ما اعترضش استفزوه، واول ما تبدا الخناقة هاخرج انا اتصرف.

ينفذ زيدان تعليمات عبدون بحذافيرها، وبمجرد ان يقترب رجال شيخون من السيارة يعترض سعيد، ويبدا زيدان في استفزازه اكثر بكل الطرق الممكنة ليخرج عبدون، ويقف على ذات المورجيحة التي نصّب نفسه رئيسا للدار من فوقها، في مشهد مشابه.

عبدون:

ـــ في ايه يا سعيد؟ انك هتفضل كده تعارض من اجل المعارضة، وخلاص، بتتخانق عايز ايه؟

سعيد:

ـــ انت ايه اللي انت بتعمله ده يا عبدون؟ ومين الناس دي وبياخدوا عربية البابا ليه؟ وبيحطوا متاريس في الجنينة ليه؟

عبدون:

ـــ شاطر انت يا سعيد وخايف على حقوق اخواتك في اللعب وحقك انك يبقى عندك عربية خردة تتمدد فيها.

بس مش خايف يعني على اخواتك يموتوا من الجوع، ومسالتش نفسك العيال دي بتاكل منين ولا انا بعمل ايه.

انت فاكر ان انا بحكم دار بجد بقي وكده لا يا سعيد،

انا يوم ما جيت مكان البابا ملقيتش دار، لقيت حاجة كده قالولي خد دي.

ولولا ذكائي وربنا اللي في ظهري، كانت العيال دي ماتت من الجوع.

ولا انت يعني ها يفرق معاك ده في ايه، مهو انت سيبت احلام تموت، ها تخاف على الباقي يجوع؟

وادار عبدون وجهه لباقي الايتام:

ـــ انتوا عارفين احلام ماتت ليه؟

عشان انا مكنتش موجود، ولو كنت غبت اكتر من كده كنت هارجع الاقيكم كلكم حصلتوها.

انا كنت في رحلة عشانكم، جبت فيها اكل يقضينا شهور لقدام، وفرتلكم موارد تجيب فلوس من جوه الدار مش سلف ولا دين، مثلا الشجر اللي حوالينا ده بيستهلك مياه وملوش لازمة، هيتشال ونتستفيد بمكانه.

العربية الخردة دي هتتباع بالكيلو عشان جبنا العربية اللي واقفة على الباب تعمل للدار هيبة وتزود وتخلي الناس تتعامل معانا بشكل مختلف،

وهنبني بفلوس الخردة دي غرفة ادارة عظيمة عشان تحفظ هيبتنا برضوا قدام الضيوف.

سعيد:

ـــ كنت هصدقك يا عبدون لو كنت قلت انك هتجيب دواء للي عيانين... كنت هصدقك لو اول حاجة عملتها نزلت تطمن عليهم، بدل ما تسيّبهم عيانين وجى تخطب عشان تبني أوضة ليك بالدين اللي احنا كلنا ها نسدده من قوتنا.

عبدون:

ـــ شوف مين بيتكلم عن زيارة المرضى، سعيد اللي رفض يساعد احلام وسابها تموت قدامه.

انا مش ببني الأوضة عشاني انا ببنيها عشان الدار، واه ببني أوضة، وهبني اتنين وتلاته كمان هو عشاني ده عشان الدار.

وعشان تبقوا فاهمين انا ليه منزلتش للعيانين؟ عشان انا خدت قرار محدش ينزل تاني على اللي بيعالجوهم عشان نمنع انتشار العدوى،

وبالنسبة للأدوية، انا هبعت مع الرجالة اللي هياخدوا العربية الخردة رسالة عشان يجيبوا مش بس دواء لا، كمان دكتور.

المهم دلوقتي تساعدوهم يقطعوا الشجر، واه صحيح، انا بعت الشجرة الكبيرة للعم محمد الشيخ، واللي هيشتغل هياخد باله منها هياخد مرتب كبير منه... يلا اهي فرص عمل كمان.

ونظر عبدون لفاتن قائلا:

ـــ يا فاتن، انتي شايفة اللي انا بقوله غلط؟

فاتن:

ـــ معرفش يا عبدون، انا مش فارق معايا غير العيال العيانة، ولو انت هتعالجهم وتجيب دواء، انا هساعد بكل اللي اقدر عليه.

والحاجة الوحيدة اللي اقدر عليها دلوقتي اني اقول لسعيد:

ـــ ابعد يا سعيد، انت رفضت تساعد احلام، فبلاش تعطل اي حد بيساعد حتى لو تصرفه مش اكتر تصرف صح، بس اهو بيعمل حاجة يمكن تصيب...

ابعد يا سعيد وسيب عبدون وسيب العمال يشتغلوا، يمكن عبدون يعرف يعمل اللي انت معملتوش.

ينظر سعيد الى الارض ويتوجه لعنبر الاصحاء بكل هدوء، ويعود عبدون لغرفة البابا، ويكمل العمال وضع المتاريس حول الشجرة، ويقطعون في باقي الشجر.

تساقطت الشجيرات التاريخية التي زرعها الايتام جيلا بعد جيل. الفأس تأكل الخشب، وصراخ الاطفال يواكب سقوط الجذوع.

ومن الخشب المقطوع، امر عبدون رجاله ببناء جراج لـ "ملكة الصحراء"، وباقي الحطب رُكن في الزوايا في انتظار تحويله لفحم...

وطلب من رجال شيخون حمل سيارة البابا العتيقة على شاحنتهم.

وفي نفس المكان الذي كانت تربض فيه السيارة القديمة، بدأت اعمال بناء "غرفة البابا الجديدة"؛ صرح من الرخام المستورد والديكورات الذهبية التي امدّه بها "ولاد العم".

اطلّ سعيد من بعيد على ما يحدث وظل يراقب، ويتأمل كل شبر في الدار، وفي عقله تتصارع افكار مرعبة حيث واجه سعيد نفسه:

ـــ هو انا صح ولا عبدون؟ ولا بكر؟ ولا منى؟ ولا كلنا غلط؟

يعني اللي مسؤول عن موت احلام مين؟

ولا البابا اللي مشى ومرجعش وسابني، لا عارفين نتصرف ولا عندنا ادوية ولا فلوس ولا اي حاجة تخلينا نتصرف.

طيب هو انا بجد زعلت عشان احلام، ولا زعلت عشان نظرة فاتن ليّا لما ما ساعدتهاش؟

هو انا بجد، زي ما هي شايفاني، زعلت على العربية ومزعلتش على احلام؟

طب لما كنت بقول "مفيش فايدة"، كان بجد مفيش فايدة؟ ولا بقي مفيش فايدة بسبب سكوتي وسلبيتي؟

يمكن لو كنت ما قلتهاش كان الوضع اتغيّر من زمان.

بس المهم دلوقتي يا سعيد، هتعمل ايه؟

هو خلاص بقي مفيش فايدة، واهو عبدون رجع بإشارة من ربنا ليك، باع العربية، وبقي ملكش مكان في الدار كلها امشِ يا سعيد.

بس تروح فين...؟ اي حتة غير هنا، يمكن تنجي بنفسك من عبدون، ويمكن ينجي اخواتك منك.

حتى حلّ الليل، خرج سعيد نحو البوابة الرئيسية، لم يلحظ فاتن الجالسة تبكي وحدها في ظلمة الجنينة، لكنها لاحظته، وبعد ان قفز من فوق البوابة ليصبح خارج الدار...

فاتن من داخل الدار، ويفصل بينهما البوابة الحديدية:

ـــ انت رايح فين يا سعيد؟

سعيد:

ـــ انا ماشي يا فاتن ومش راجع تاني.

فاتن:

ـــ بسهولة كده؟

سعيد:

ـــ لا، مش بسهولة، بس لازم امشي.

فاتن:

ـــ امشِ يا سعيد، انت مبتعرفش تعمل حاجة غير الهروب؛ مرة تهرب بالضحك والهزار،

ومرة تهرب بيأسك وجبنك،

ودلوقتي بالهروب اللي بجد. امشِ يا سعيد.

سعيد لم يرد على فاتن، ونظر بعينه الى الارض منكسرا، وتحرك دون ان يلتفت مرة واحدة للخلف.



وظلت فاتن تراقب ظله بعين دامعة حتى تلاشى ظل الاخ غير السعيد (سعيد).

وفي الداخل، كان البابا عبدون منشغلا بتليفون البابا، يتصل بشيخون وسعداوي وولاد العم وكل من يستطيع الاتصال بهم.

عبدون مشاعره متضاربة؛ يتألم لمرض اخوته ويعتصر قلبه على موت احلام،

وفي ذات التوقيت ينتظر بفارغ الصبر بناء غرفته الجديدة بعد ان وضع اساسها اليوم.

حصل عبدون على نصائح من الجميع للتعامل مع مرض اخوته، وبعض دور ايتام الغرب ابلغته انها سترسل اليه علاجا للمساعدة في علاج الايتام.

كانت كل مكالمات عبدون حينها تشبه بعضها بشدة، عدا مكالمة العم شيخون الذي بادر هو بالاتصال.

شيخون:

ـــ يا عبدون، في ايه عندك؟ طمّني.

عبدون:

ـــ لا متقلقش، كله تمام وتحت السيطرة.

شيخون:

ـــ يعني اخواتك بخير؟

عبدون:

ـــ ايه ده، انت عرفت؟ انا بحسبك بتسأل على التجديدات اللي بعملها في الدار...

والله رجعت لقيت العيال الصغيرة كلها تعبانة، بس اخواتنا في اليمة الغربية هيبعتولي علاج.

شيخون:

ـــ طب الحمد لله، طمّني بقي على باقي الحاجات.

عبدون:

ـــ كله ماشي زي ما اتفقنا، ومرض العيال عندي جه بمصلحة في ترتيبة، كده في بالي هاتخلي العيال عندي هما اللي يطالبوا بحبس سعيد للابد ونستريح بقي.

شيخون:

ـــ لا، بلاش الثقة دي، انت خلصت من بكرة، طلع سعيد؟ وسعيد لو مشى هيطلع الف سعيد، يعني تخلص منه؟ اه، لكن برضه تفضل مسيطر بيد من حديد.

عبدون:

ـــ طب عندي طلب عايزه منك... اصل انا شوفت في عين العيال نظرة مش اللي هي، وهو الشجر بيتقطع، وبصراحة الجنينة بقي شكلها اقرع اوي وهي مفيهاش غير شجرة واحدة اللي هي بتاعتك، عايز منك تساعدني نخلّي شكل الجنينة حلو عشان العيال تنسى الشكل القديم.

شيخون:

ـــ بعد بكرة يبقى عندك شوية شجر ونخل زينة، كله بلاستيك، شكله تحفة، يخلي الشكل حلو ويوفر مياه وينسّي العيال الشكل القديم وانت باي مونة تتبقي اعمل صبة خرسانة في اي حته وقول ده مشروع للمستقبل هايتلهوا في حلم التطوير للمستقبل وينسوا الماضي.

عبدون:

ـــ الله يبارك لك يا كبيرنا.

شيخون:

ـــ طب يلا اقفل، عشان خالد ابني بيعيط شكله وقع وهو بيلعب.

واغلق شيخون الهاتف دون حتى ان ينتظر رد عبدون، الذي لم يعد يتأثر بمثل هذه الامور.

وقبل ان يخلد عبدون للنوم، وبعد ان اطمان ان ازمة نقص الدواء ستنتهي قريبا، قرر النزول والمرور على المرضى محضرا لهم بعض الهدايا التي جلبها معه من جولته.

لم يكن عبدون يتخيل حجم الكارثة حتى رأى بعينه المرضى من اخوته...

عاد لغرفته في حالة هيستيرية، صوت بكائه يهز الدار، وبصوت عالٍ:

ـــ يا زيدان، يا زيداااان!

(دخل زيدان مسرعا)

ـــ انت ازاي متقولش ان الحالة تحت كده؟ انا كنت فاكرها شوية برد وهتخلص.

زيدان:

ـــ سعادتك، انا كنت معاك في الجولة.

عبدون:

ـــ انت السبب في كل اللي حصل يا زيدان، لو مكنتش جيت معايا مكنش الحال وصل لكده.

زيدان في داخله، محدثا نفسه:

ـــ هو انا اللي خوفت اسيب اهم رجالتي هنا عشان مياخدش مكاني؟ عنده حق شمعون وكل ولاد عمنا في اللي قالوه عنك.

زيدان بصوت مسموع:

ـــ اللي تشوفه حضرتك، نتصرف ازاي؟

عبدون:

ـــ انت جزء من المشكلة يا زيدان، ومينفعش تبقى جزء من الحل، حالا يبقى قدامي عناني وسعيد وفاتن.

زيدان:

ـــ طب فاتن وسعيد مفهوم وحاضر سعادتك، انما عناني ليه؟

عبدون بعصبية:

ـــ هو انت اللي هاتحدد اقابل مين ومقابلش مين؟ نفّذ يا زيدان حالا.

يخرج زيدان وهو يتمتم، وبدا على وجهه الشر، وابلغ عناني وفاتن بالأمر، ولم يجد سعيد، فحضرت فاتن وحدها.

عبدون:

ـــ فاتن، قوليلي ازاي وصلنا للحالة دي، وازاي ما قلتوش ليا اول ما جيت ان الوضع سيئ كده؟ وفين سعيد وفين عناني؟

فاتن:

ـــ عناني اتعدى وبيموت تحت، بس بيحاول يتماسك قدام اخواتك.

اما سعيد، فهو ساب كل حاجة وهرب: سابلك للدار وهرب، وساب السجن لبكر وهرب، وساب المرض ليّا وهرب، وساب لأخواته الصغيرين الوجع والمرض والموت وهرب.

عبدون:

ـــ طيب مش وقته يا فاتن، انا طلبت شحنات ادوية وهتيجي قريب، قوليلي نتصرف ازاي.

تنهار فاتن وتضرب على وجهها بعنف:

ـــ نتصرف ازاي؟!!!

انت اللي بتسأل نتصرف ازاي؟! معرفش، معرفش، معرفش...

(ثم تخفض صوتها كأنها قد جُنّت)

ـــ عناني اللي بيحاول يعالج، انا مبعملش حاجة غير اني اهوّن عليهم على ما يموتوا.

عبدون:

ـــ يعني مفيش حل؟

وفجأة تتغير ملامح فاتن للفرح، وبكل حب:

ـــ يعني انت بجد بتدوّر على حل؟

عبدون:

ـــ طبعا هو ده ممكن يبقي فيه شك، ايه الحل يافاتن؟

فاتن:

ـــ نزّلني يا عبدون لمنى، هي اللي بتفهم في الحاجات دي، واوعدك بعدها اسمع كل حرف تقوله.

عبدون:

ـــ انزلي طبعا، هو حد يقدر يمنع؟

يقاطع زيدان:

ـــ عناني اللي منعهم يا ريس.

عبدون بغضب:

ـــ اطلع برّه يا زيدان، وتستنى فاتن على الباب، واي امر تقوله فاتن مهما كان يتنفذ ولو على رقابتك، وده من دلوقتي لحد ما انا اقول خلاص.

وبمجرد سماع فاتن لحديث عبدون، ارتمت في حضنه وتمسكت به بعنف، شعرت كأنها تبحث بداخلها عن حضن البابا وحضن بكر وسعيد ومنى، وكل من كانت تنتظر منهم السند.

اما عبدون فكان الحضن الذي لم تتخطَّ مدته ثوانٍ يمر عليه كسنوات، وفي عقله العديد من الاسئلة المريبة.

يقول في نفسه:

ـــ هو ده الحضن اللي كنت مستنيه من بدري يا عبدون؟ اخيرا حصل!

لا، الظروف مختلفة اكيد، انا كنت عايز حضن تاني، حب مش خوف.

بس ده مكنش حضن خوف، ده العكس، كان حضن امان.

طب يا ترى هي حست بنفس الامان اللي انا حسيت بيه؟

طب هو حضنها للبابا زمان كان...؟

وقبل ان تكتمل صراعات الافكار، قاطعهم زيدان:

ـــ يلا يا فاتن.

عبدون قبل ان يخرجا:

ـــ يا زيدان... انت بقيت من اكبر مشاكلي.

ويخرجان متجهين الى البدروم.

وقبل ان تتوجه لسجن النساء، مرت فاتن على بكر في سجنه، ونظرت من النظارة -فتحة في باب الزنزانة-.

في العتمة الرطبة، كان بكر يجلس "كملك" يفترش نصف الزنزانة وحده، وزملاؤه يتكدسون في النصف الاخر يستمعون لحكاويه.

فاتن من خلف الباب:

— يا بكر.

المعتقلون الذين لم يسمعوا صوت فاتن او غيرها منذ فترة طويلة، هرعوا نحو الصوت، فعنّفهم بكر:

— كله يفضل مكانه، انا ما أذنتش لحد يتحرك.

فيعود الجميع الى اماكنهم، ويوجه بكر حديثه لفاتن من مكانه.

بكر:

ـــ فاتن يااااه، اخيرا عظمتك رضيتي عليني، هههههه، قوليلي بقي ازاي حبيبك عبدون سمحلك تنزلي هنا... انتي اللي رضيتي عليه ولا هو اللي رضي عليكي؟

فاتن:

ـــ انا مش فاهمة منك حاجة يا بكر، اخواتك فوق بيموتوا.

بكر:

ـــ خلي البابا يعالجهم.

فاتن بعصبية وصراخ:

ـــ ايه، هو في ايه انتوا كلكم مش حافظين غير نفس الكلمة؟

بكر:

ـــ كلكم؟! والله انتي ادرى، بصّي، خلّي اخواتك يصبروا، ميموتوش لحد ما انا ابقى البابا واشوف اعمل ايه...

ومتقلقيش، الكلام ده قريب اوي.

فاتن:

ـــ انتوا كلكم مفيش فيكم امل، كلكم واحد، كلكم نفس التربية ونفس الاخلاق، واي حد كان هيبقى البابا، كان التانى هيبقى مكانك هنا يا بكر... سلام.

كان المشهد دراميّا، لكن الخطوة الاهم كانت نحو زنزانة منى.

نظرت فاتن من نظارة زنزانة البنات لتجد في وجهها نوران:

نوران:

ـــ يا فتون، واحشاني اوي، انا سمعت صوتك برّه وقفت استناكي.



فاتن:

ـــ انتي واحشاني اكتر بكتير والله، بس مش وقته الكلام ده، احنا في مصيبة، اخواتك عيانين وبيموتوا، اندهيلي منى.

نوران:

ـــ استحالة طبعا، منى مديّاني تعليمات محدش يصحّيها، وانا مقدرش.

فاتن:

ـــ نفس الكلام ده سمعته قبل كده من عناني، واما سكت عليه كانت النتيجة موت احلام.

تصرخ نوران:

ـــ موت ميييين؟! احلام؟! مين اللي ماتت؟!

صوت نوران يفزع منى، التي توجه نظرها بغضب لنوران، وقبل ان تنطق كلمة واحدة كانت فاتن التي قد وصلت لأخر محطات صبرها، موجهة كلامها لزيدان:

ـــ عبدون امرك تنفّذ تعليماتي، افتح الزنزانة دي حالا وطلّع منى برّه، حتى لو بالقوة.

زيدان باستهتار:

ـــ تعليماتك يا ريسة اوامر.

يفتح زيدان الزنزانة، وبمجرد ان شاهدته منى تذكرت لحظة اعتقالها على يده قبل ان يصبح كبير رجال عبدون،

ومازالت تشعر بيده التي تحرشت بها للمرة الاولى في حياتها، تنقض عليه كاللبؤة التي تفترس ضبعا...

تتدخل فاتن لتقتلعها من فوقه، وتشير لزيدان:

ـــ استناني برّه.

وتوجه فاتن نظراتها نحو منى:

ـــ ابوس ايدك يا منى، اسمعيني، احنا في كارثة، احلام ماتت وفي ٣ اطفال بيحتضروا، والدار كلها عيانة وبتموت، وانا مش عارفة اتصرف ولا عارفة اعمل حاجة، وكل الكبار في الدار اللي هرب واللي اتجنن واللي عامل زعيم، ومحدش شايف العيال.

منى تحتضن فاتن:

ـــ اهدي يا فاتن، والنبي عشان خاطري (وهي تبكي) احكيلي كل حاجة بتحصل فوق، وان شاء الله نلاقي حل.

فاتن ابلغت منى بكل ما حدث، وبدت الدهشة على وجه منى:

ـــ انا توقعت حاجات كتير يا فاتن، لكن عمر توقعاتي ما وصلت للسواد اللي انتي بتحكيه ده.

اخذت منى نفسا عميقا وقالت:

ـــ "افهمي يا غبية! العيال مش عيانين بفيروس بس!

العيال بتموت من سوء التغذية والتلوث، وهيموتوا اكتر.

عبدون هيقطع ميزانية الاكل عشان يدفع قسط "ملكة الصحراء"!
وبكرة يقطع المياه النظيفة عشان يملى حمّام السباحة في غرفة البابا الجديدة!

واهو قطع الشجر اللي كان بينقّي التراب ويحمي اوض العيال!

المرض ده منهج اقتصادي يا فاتن.. عبدون بيبيع صحة العيال عشان يشتري بيها هيبة مغشوشة!"

وخدي بالك، عبدون مش وحش، انا زيه، وانتي، والعبيط اللي عمال يجعر في الزنزانة اللي جنبك، وزيدان، وحتى سعيد.

انا كنت بغير منك، وزيدان كان بيتحرش بيّا، وبكر كان مستعبد زيدان، وكانوا بيسخروا من سعيد، وسعيد باع بكر، وممكن اكمل كده لحد ما اقولك اسماء كل اخواتك.

يبدو الدهشة على وجه فاتن... منى، من امتى بتفهمي في ده كله؟

منى:

ـــ يا فاتن، قعدتي في الزنزانة، خصوصا الفترة الاولى اللي كنت فيها لوحدي، خلتني افكر كتيررر واشوف حدوتة الدار من برّه.

واكتشفت ان المشكلة مش في اي حد فينا، المشكلة اننا متعلمناش غير ده، والمشكلة الاكبر ان البابا اللي اختفى ده اضر بينا بحبه.

شالنا من على الارض شيل، واما مشى ساب شوية عيال ميعرفوش يشيلوا نفسهم مش يشيلوا اخواتهم.

عارفة يا فاتن، انا في الاول نصّبت نفسي البابا في السجن هنا عشان غروري وغيرتي منك وبلاوي كتير، لكن بعدين عقلت...

تفتكري اما عقلت رجعت اتعامل معاهم هنا كأخت؟ من غير ما تجاوبي: لا طبعا.

تفتكري ليه؟ ... عشان ببساطة لو انا بقيت اخت، نوران هاتشوف نفسها البابا، ولو مش نوران اي بنت من اللي جوه دول... كلنا جوانا بابا صغير يا فاتن.

صدمت فاتن من هول التحليل الدقيق.

كانت منى ترى المنظومة بأكملها: ترى كيف يُدار المأوى، وكيف تُستبدل الارواح، وكيف يُساق الجميع نحو المقبرة.

تمسكت منى بيد فاتن، ولأول مرة خلت نبرتها من التكبر:

ـــ خلينا في المهم، ...

كويس اوي انكم فصلتوا المرضى لوحدهم، خدي منهم العيال اللي يقدروا يقوموا وخليهم يتعرضوا للشمس بدري،

وامنعي عنهم اي اكل او مياه غير بعد ما يتعرض لنار لدرجة الغليان! لحد ما تيجي الادوية وتقوليلي هي ايه ونختار منهم المفيد،

واعملي اي حاجة لعبدون يا فاتن، قوليله انك بتحبيه، اتخانقي معاه، اضربيه، المهم يجي دكتور.

ومن هنا لحد ما ده يحصل، الاكل النظيف والمياه النظيفة،

واهم من ده كله الحالة النفسية، حسّسي الاطفال انه مفيش حاجة، لاعبيهم، متكشريش في وشهم، داري حزنك واحكيلهم حواديت... لو هما حبوا الحياة هيعيشوا.

مهمتك صعبة اوي من غير سعيد يا فاتن... وصحّي يا فاتن، العصابة اللي سايقة عبدون اكيد مش بتساعده لله، ومش هتسيب لينا حتى الجثث!"

خرجت فاتن من البدروم، وودّعها دعاء منى: ربنا معاكي يا فاتن، ربنا معاكي ومعاهم يا فاتن.

وبمجرد ان خرجت، صُدمت فاتن بمشهد عناني واحد رجاله وقد انهارت قواهم،

يحملون جثتي طفلين فارقا الحياة، ينظرون نحو فاتن، وقهرهم وحزنهم كان ابلغ من الكلمات.

حملت فاتن الصغيرين واحدا تلو الاخر الى حيث قبر احلام، وقبل ان تحفر، وجهت نظراتها لعناني:

ـــ مكانك مش هنا، انا هتصرف، انزل خليك جنب اللي لسه عايشين.

وبدأت فاتن بالحفر، لتجد يد عبدون تساعدها دون ان ينطق بكلمة.

كان عبدون يصارع تراب الارض، يحفر بعنف كان هذا القبر اصبح خصمه، واثناء الحفر توقف فجأة كمن شطّ به العقل، فأمسكت يد فاتن يده تواسيه.



وحين ظهرت اثناء الحفر ملابس جثة احلام، لم يتحمل عبدون المشهد، فأبعدته فاتن بعطف، ودفنت الصغيرين، وخرجت نحو الاصحاء لتداعبهم وتشعرهم ان كل شيء طبيعي، كما اوصتها منى.

خرجت فاتن الى الجنينة وحيدة تنتظر استيقاظ الاصحاء.

وزيدان يجلس على المورجيحة التي شهدت تنصيب عبدون بابا، يفكر بعمق في كل شيء.

وعبدون في غرفته، ممسكا بالتليفون، عيناه تتنقل بين شجرة شيخون، و"ملكة الصحراء"، والجرانيت، ومواد البناء المجهزة لبناء غرفته.

لم يقطع لحظة تامل عبدون في خرابه غير صوت جرس التليفون.

عبدون:

ـــ الو، مين؟

الجانب الاخر:

ـــ انا سعداوي يا استاذ.

عبدون:

ـــ ازيك يا صديقي.

سعداوي:

ـــ طمّني عليك وعلى "ملكة الصحراء"، وقولي الواد سعيد عمل حاجة وانت مش موجود؟

عبدون بكبر:

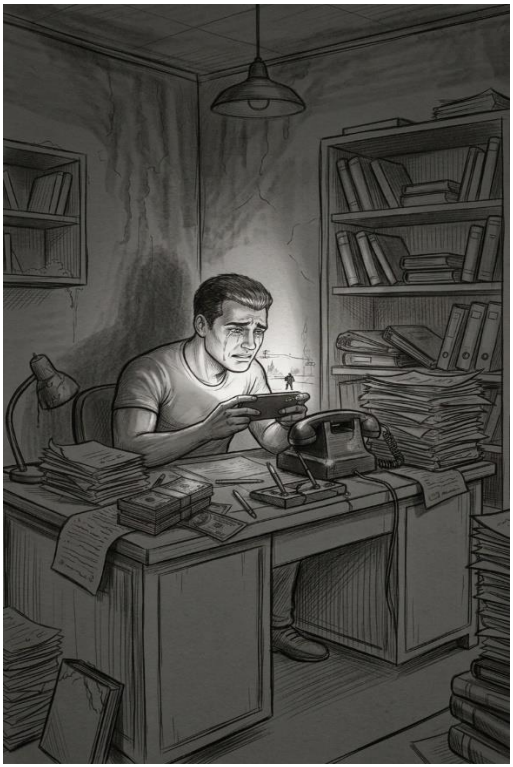
ـــ ولا يقدر يعمل حاجة، وانا اصلا اول ما وصلت قلت: هو انا هستني يوجعني دماغي؟ فحبسته على طول في البدروم.

سعداوي:

— والله انت دكر، يلا بقي يا عم افتح التليفون اللي اديتهولك هدية وافتح ببجي، ويلا نلعب شوية.

عبدون يخفي حزنه ويمسح دموعه:

— يلا بينا.



وظل عبدون يلعب ويبكي حتى غله النوم.

وعلى الجانب الاخر، اغلقت فاتن عينيها وهي تجلس في الجنينة تنتظر الصغار.

الدار بأكملها في نوم وسبات، عدا شخص واحد:

زيدان، الذي لم يتأثر ولم يصبه التعب ولم يغلبه النوم.

ومع شروق يوم جديد، احد الصغيرات تمسك بفستان فاتن، وبصوت طفولي بريء:

ـــ يا فاتن، اصحي بقي، انا جعانة وكل العيال جعانين، هتعملنا اكل ولا ناكلك؟ ... هم.. هم.

فاتن تبتسم:

ـــ يلا يا زهرة، ساعديني.

وبعد تحضير فطور الصغار الاصحاء والمرضى...

فاتن:

ـــ يا زهرة، تقفي بعيد ونادي على أخوكي عناني، قوليله ييجي ياخد الفطار.

زهرة الصغيرة:

ـــ احنا بنندهله من الصبح اصلا عشان نتخانق معاه عشان يطلّع اخواتنا ومش بيرد.

فاتن مسرعة نحو عنبر المرضى، لتجد عناني يحتضن طفلا صغيرا وقد فارقا الحياة معا.

تماسكت فاتن وتوجهت نحو زيدان:

ـــ يا زيدان، عناني مات (زيدان في سره: يلا ريّح) وكمان شريف اخوك مات، انزل انت واتنين معاك تشيلوهم وتوديهم الجنينة الخلفية،

وانا هشغل الولاد اللي بيفطروا عشان ميحسوش بحاجة، وهاجي بعد الفطار ادفنهم.

زيدان بامتعاض:

ـــ تعليماتك يا ريسة.

نظر زيدان لقوة فاتن في هذا اليوم؛ لم تنهار ولم تبكِ، ووجّه حديثه لمساعده:

ـــ هي مال فاتن قلبت حنوتية كده؟ دي البت ما دمعتش حتى،

تفتكر اللي قوّى قلبها هو ان عبدون ركّبها علينا؟ ولا مواضيع الموت والجثث دي خلاص بقت حاجة عادية ومتعودة عليها؟

يلا مش مهم، وصلنا، اهو شيل انت عناني وانا هشيل شريف، وعيب يا بيه عينك تدمع، دي معملتهاش فاتن البنت، هتعملها انت يا دراعي اليمين.

فاتن جمعت الصغار حولها تلاعبهم وتطعمهم، كانه يوم طبيعي من ايام البابا الراحل.

احد الصغيرات:

ـــ يا فاتن، الحقي في ناس معرفهمش، دخلوا الدار حتى من غير ما يقولوا لعبدون ولا زيدان ولا عناني، وبيحطوا شجر بلاستيك في كل حتة.

فاتن:

ـــ ايوه يا حبيبتي، متقلقيش، ده عبدون اللي اشتراه عشان مكان لعبكم يبقى احلى.

الصغيرة:

ـــ لا، انا عايزة الشجر القديم، خصوصا الشجرة اللي كنا بنفضل نحدف عليها اي حاجة تنزل توت.

فاتن:

ـــ متقلقيش يا حبيبتي، الشجر اللي عندنا عيان وخدوه للدكتور، والشجر البلاستيك ده زينة بس لحد ما شجرتك ترجع.

قاطعهم احد الاولاد:

ـــ على فكرة يا فاتن، انا شوفت سعيد وهو ماشي، وسمعتك وانتي بتقوليله انه بيهرب.

فاتن:

ـــ لا بقي، ايه اللمة دي كلها؟

شوفوا يا حلوين، عشان مش كل شوية واحد فيكم يعمل المفتش كونان ويجي يستجوبني، اسمعوني سوا بقي كويس:

ـــ عبدون اخوكم الكبير مش شرير ولا حاجة، يمكن اكتر حد بيحبكم، وهو شديد شوية عليكم بس عشان هو اللي متحمل المسؤولية، وبكرة تكبروا وتعرفوا قد ايه ده صعب.

وبكر اخوكم الكبير برضه ما نزلش البدروم عشان هو وحش، هو بس كان زعلان ومتضايق واتخانق مع اخوه، هو انتوا مش بتتخانقوا وتتصلحوا كل شوية؟

وسعيد كمان مش جبان ولا هرب، سعيد بس تعب، وده من حق اي حد يتعب، بكرة يرجع، وحتى لو عجبته العيشة برّه الدار يبقى نفرح ليه ونعمل كل حاجة تخلي الدار بتاعتنا حلوة عشان محدش تاني بنحبه يمشي ويوحشنا زي سعيد.

اطمأنت قلوب الصغار بحكايا فاتن.. الا الصغير "مضبوط".

سكنت الجملة الاخيرة عقله الصغير كطنين نحلة لا تهدا:

علقت في اذنه كلمة واحدة وظلت تتردد:

"عشان محدش تاني يمشي..".

لم يفهم منها التثبيت، بل فهم براءة الخروج. اذن.. العالم في الخارج ليس غولا! سعيد لم يمت، سعيد فقط اراد ان يكون احسن، وان من حقه ايضا ان يكون احسن.

تقدمت الصغيرة زهرة

(تلك الصغيرة التي تلصصت يوما من كرتونة "بسكو مصر" على عبدون ومنى، قبل ان يودعاها في البدروم) تقدمت تشد طرف ثوب فاتن، وقالت بفزع:

ـــ الحقي يا فاتن... العيال العيانين في الأوضة الجوانية مسخنين اوي... الكمادات مش جايبه نتيجة، ولسانهم تقيل، ومش عارفة عناني راح فين!

ارتجفت يد فاتن... وادركت حينها انها وحدها اصبحت مسؤولة عن الاصحاء والمرضى والجثث.

وانقطعت الحكاوي، وانصرفت فاتن لتتولى كل المهام وحدها.

الفصل الثاني عشر:
بابا

بعد مرور عدة ايام، لم تعد فاتن تعرف كم يوما مضى؛ لم تعد الايام تملك اي معنى، واصبحت مجرد ارقام عابرة مثل كل شيء في الدار.

اصبحت فاتن هي من تُعِدّ الطعام، وتلاعب الاطفال شبه الاصحاء وتقص عليهم القصص، وترعى المرضى من الايتام وتداويهم وتضع الكمادات على جباههم.

هي التي تفتح عينيها كل صبح على عدد جديد من الاسرّة الفارغة، وفي هذا الصباح دفنت اربعة جدد من اخوتها.

اختلط كل شيء لديها؛ لم تعد تفرّق بين دمعة العرق ودمعة البكاء على وجهها، ولا بين صوت انفاسها وصوت حفر التراب.

وعبدون في غرفة البابا تائه بين لعبة ببجي ومكالمات شيخون وصوت سكون الدار، بعد ان انتصر هذا السكون على ضحكات الصغار ووادها في الحديقة الخلفية.

نادى عبدون على زيدان:

ـــ يا زيدان، تعالى طمّني على الاوضاع.

زيدان دخل بوجه مرهق، عيناه غائرتين، وقف من غير اي احترام معتاد:

ـــ كله زفت يا عبدون.

عبدون توقف لحظة:

ـــ اول مرة تقولّي "عبدون" حاف كده.

زيدان:

ـــ وانا من امتى بقيت بقولّك حاجة غير عبدون حاف؟

عبدون:

ـــ من ساعة ما بقيت البابا.

زيدان بابتسامة باردة:

ـــ مهو انت لسه لحد دلوقتي البابا، بس احنا لوحدنا يعني، عدّيها بقي.

ساد صمت ثقيل. عبدون بيحس ان في حاجة اتغيرت في الهوا نفسه، بس مش قادر يحدد ايه بالظبط.

استكمل زيدان، وكانه بيتعمد يزيد الوهم في عقل عبدون:

ـــ وبعدين يا ريس، مش تدخّلني، العب معاكم ببجي.

واظهر تليفونا جديدا لامعا من جيبه.

عبدون:

ـــ جبت التليفون ده منين؟

زيدان:

ـــ من صديقنا سعداوي.

عبدون:

ـــ قصدك صديقي انا.

زيدان:

ـــ ولا انا ولا انت، ده صديق الدار، واللي بيحكم الدار.

عبدون بحدة:

ـــ وانا اللي بحكم الدار.

زيدان بخبث هادئ:

ـــ طبعا يا بابا. وبما انك البابا، في عيال جداد ماتوا، ومفيش ادوية جت... اتصرف يا بابا، ولا اتصرف انا؟

نظر عبدون في وجه زيدان طويلا، كانه يراه للمرة الاولى:

ـــ انت عارف اختصاصك يا زيدان، انت امن بس. روح يلا ساعد فاتن في الدفن.

خرج زيدان بيهز راسه رافضا:

ـــ الدفن مش من مهام الامن يا معالي البابا، شوف مين المختص، وانا شخصيا هنقلّه تعليماتك.

واستكمل زيدان في طريقه دون انتظار رد عبدون.

جلس عبدون وحيدا، وصدى رفض زيدان الاول يرنّ في اذنه، حتى تلاشى امامه كل صوت اخر من كوارث الدار واحزانها.

مدّ يده لسماعة التليفون ليجدها بلا حرارة.

عبدون محدثا نفسه:

ـــ اكيد هو زيدان طب والادوية لازم تليفون اقولهم يبعتوها

كل المؤشرات، وكل نظرة، وكل كلمة قالها زيدان من الصبح، كانت دليلا على شيء واحد: زيدان بيخطط لحاجة.

جمع عبدون كل الاموال والهدايا، ووضعها في شنطة فوق دولاب غرفته.

وخرج يمر في الدار لمتابعة الكوارث المستجدة، ومساعدة فاتن في دفن اخوتهم.

طوال اليوم، الصراعات لا تتوقف، وبدأت تظهر على الاطفال شبه الاصحاء اعراض المرض.

وفي منتصف اليوم، كان مضبوط واقفا وحده في زاوية الجنينة، وجملة فاتن القديمة ترنّ في اذنه من غير توقف:

"عشان محدش تاني يمشي... عشان محدش تاني يمشي."

ودون ان يلاحظه احد، مشى مضبوط، زي ما مشى سعيد، من غير وجهة.

في غرفة البابا، بدأت اعراض المرض تظهر على زيدان بسرعة غريبة.

جلس زيدان خلسةً على كرسي البابا للمرة الاولى، وسال نفسه:

ـــ ايه السخونية دي؟ يمكن ده عدوى من العيال؟ لا، لو كانت عدوى مكنتش هتبقى بالسرعة دي.

ودار في عقله احتمال واحد:

ـــ اكيد هو حطلي سم. واكيد اما شمعون أدهوله ولا سعداوي، زي ما ادوني انا كمان.

وقبل ما يكمل الفكرة، لم يعد يستطيع التنفس، تمسك بكرسي البابا بشدة، ثم سقط راسه على المكتب، وغاب عن الوعي.

مات؟ ولا لسه فيه نفس؟ محدش كان هناك يعرف.

وفي الجنينة الخلفية، عند حفرة القبر الاخير الذي حفرته فاتن بيديها، القى الجسد المنهك سلاحه الاخير.

لم تكن صرخة ولا استغاثة، بل هوى ذلك الجسد الذي ارهقته الدار طويلا، هوى كشجرة معمّرة انقطع صمغها فانكفات على وجهها في صمت.

سقطت فاتن فوق تراب القبر الجديد، لا لتستريح، بل لان الارض وحدها هي من بقيت تمد لها يدا تحتضن انكسارها بعد ان تخلى الجميع.

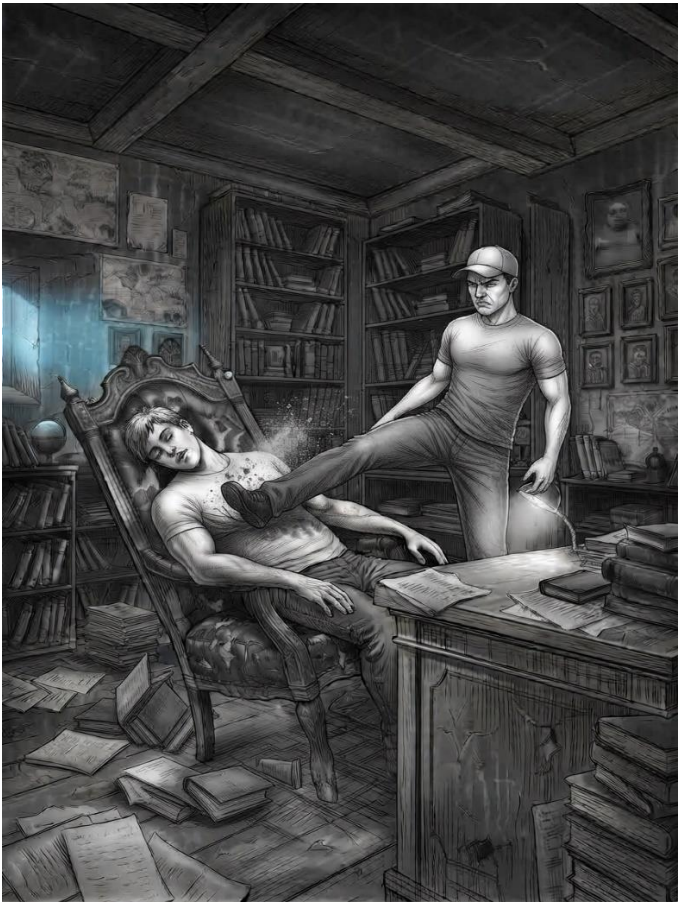
هناك، حيث اختلطت دماء عرقها بتراب الضحايا، انطفأت شمعة الدار الاخيرة، وتركت خلفها مقبرة مفتوحة بلا حارس، وجسدا طاهرا يحتضن التراب كانه يرفض ان يشهد مأساة النهاية حتى اخرها.

فاتن سقطت فعلا، لكن محدش يعرف لو كانت غيبوبة، ولا كان شيء ابعد من كده.

ووصل عبدون لغرفته ليأخذ الاموال والهدايا، ليجد زيدان جثة هامدة على كرسي البابا.

ركل الكرسي برجله، فوقع هو وزيدان والكرسي معا على الارض، وقال بصوت لا يشبهه:

ـــ يلا في داهية.



اخذ عبدون الاموال والهدايا، وتوجه مسرعا الى الجنينة الترابية، وركب "ملكة الصحراء"،

وقبل ان يهرب، القى نظرة اخيرة على شجرة شيخون، والتفت للشجر البلاستيكي، ثم نظر الى مبنى الدار، وفرّ هاربا.

بعد هروب عبدون، لم يعد في الدار مراهق واحد؛ فقد اكلهم المرض، ونقص العلاج، ونقص الغذاء، والسهر الطويل على رحلة المرض، حتى صاروا كالأموات يمشون، فلحق بهم الموت فعلا.

لم يكن هناك من يقوى على غلق باب الدار الحديدية، فخرج عبدون وكل ابواب الدار مفتوحة، عدا بابين... باب عنبر المرضى، المشغولين بالاحتضار عن صراعات الدار، وباب البدروم.

مرّ اليوم وسكان البدروم بلا طعام ولا ماء،

وفي سجن الرجال كان بكر مشغولا بتأديب احد السجناء الذي خالف اوامره، ونقش اسمه على الحائط بحجر،

ثم التفت وقال:

— هو ليه ما جاش اكل ولا مية النهارده؟ انا جعان في حاجة باقية من امبارح؟

احد المساجين:

— في أزازه مياه واحدة.

التقطها بكر منه وشربها دون ان يترك نقطة مياه واحدة لا لزملائه ولا للمستقبل.

اما منى، التي كانت تنظر في وجه نوران وعقلها تائه في خيالاتها عما يحدث في الاعلى في الدار.

نوران:

ـــ يا منى، احنا عطشانين اوي، ومحدش جاب مياه ولا اكل.

منى:

ـــ ولا حد هيجيب يا نوران.

نوران:

ـــ يعني ايه؟

منى:

ـــ يعني اللي فاضل فوق نسي ان في ناس تحت.

لو تعرفوا تكسروا الباب، اكسروه، ولو ما تعرفوش، يبقى ناموا في هدوء.

نوران كمن شطّ عقلها تصرخ، ويتبعها رفيقاتها بالصراخ.

لتفطن احداهن لحل قد يكون الاخير:

ـــ يا بكر... ياااااااا باااااكر، يا بكر، الحقنا واكسر الباب، كلنا هنموت!

كان صوت زميلاتها عاليا بما يكفي ليخترق الجدران، لكن كان الاجدى ان يحتفظن بهذه الطاقة ليبقين اطول مدة على قيد الحياة.

سمع بكر وزملاؤه اصوات استغاثتهن، ووقف بكر على النظارة:

ـــ خلّوا البابا عبدون ينفعكم، هاه، هاهاهها، ها.

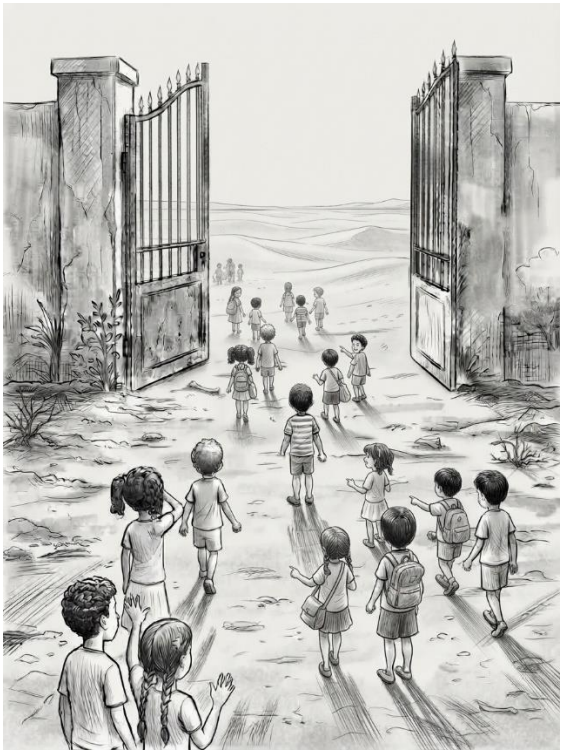
وظلت تتعالى اصوات الاستغاثة، واختلطت بأصوات من فشلت محاولتهم في كسر ابواب السجنين، حتى تلاشت الاصوات تدريجيا، وسيطر السكون على البدروم، واعلن السكون نفسه البابا الجديد للبدرون.

لكنه لا يشبه البابا الاول، ولا البابا عبدون بعده؛

سكون بابا لا صوت له ولا وجه له، لا يحتاج من يهتف له ولا من يخاف منه، ليس تواضعا منه، ولكن لأنه لم يعد هناك من يهتف او يخاف.

وبعد ان هربت "ملكة الصحراء" محمّلة بالأموال والهدايا وعبدون، لم يعد في الدار ايٌّ من الايتام المراهقين الكبار ليغلق بوابة الدار خلفه.

انفرط عقد الصغار كحبات لؤلؤ انقطع سلكها؛ لم يبقَ في الدار من يردّهم، فبدت البوابة منفذا لطريق مظلم يبتلع براءتهم.



الايتام الصغار عبروا البوابة الى الصحراء الممتدة كـ أسراب طير ضلّت طريق العش؛ طفل يتخبط في سراب الرمال، واخر يلتفت وراءه بشوق لأيام البابا وحتى اول ايام عبدون، وصغيرة تمسك بلعبة قماشية بالية وكأنها تلوح لسراب بعيد.

خرجوا افرادا وجماعات، تبتلعهم رمال الصحراء بلا وجهة ولا مصير، شريان صغير يتدفق نحو المجهول، ليتركوا دار الامل هياكل خاوية تندب فيها الريح.

كانت هناك طفلة واحدة اختبأت خلف احدى المسوخ البلاستيكية التي نُصبت مكان الاشجار... تلك الصغيرة التي تلصصت يوما ما من كرتونة "بسكو مصر" لترى عبدون وهو يفحص منى قبل نزولها البدروم... انها الصغيرة زهرة.

حاولت زهرة دخول عنبر المرضى، لكنها تذكرت تعليمات فاتن وعناني بعدم الدخول، فنادت من خارج باب العنبر، ولا مجيب.

وقفت زهرة وحدها عند باب الدار المفتوح، تمسك بطرف الباب الحديدي، وتنظر للأشجار التي لا تتطاير مع الريح، وتقلّب وجهها للصحراء تارة، ولمبنى الدار تارة اخرى.

ومن الصحراء، ظهر رجل كبير، قصير القامة، يبدو اصغر من البابا الراحل واكبر من عبدون ورفاقه.

وبمشية رجل واثق من نفسه، اقترب من صغيرتنا.

ـــ ايه يا قمر، واقفة كده ليه؟

زهرة:

ـــ كل اخواتي مشيوا ونسيوني.

الرجل:

ـــ يعني المكان ده كله مفيش فيه غيرك؟ ولا في حد ياخد باله منه؟

زهرة:

ـــ ايوة، انا هاموت زي اخواتي.

الرجل ركع على ركبته، بابتسامة دافئة اتقنها منذ زمن بعيد:

— لا، مش هاتموتي يا حبيبتي.



انا هاخد بالي منك، وهاجيبلك اخوات كتير في الدار تاني.

زهرة:

ـــ بدل سعيد وفاتن وكل اللي مشيوا؟

الرجل:

ـــ ايوة.

زهرة:

ـــ يعني انت هتبقى البابا الجديد؟

ابتسم الرجل، ومد يده لها:

ـــ ايه البابا دي؟ اسمي بابا بس، مش البابا.

قوليلي بعد كده: بابا ابراهيم.

امسكت زهرة يده الكبيرة بيدها الصغيرة:

ـــ ماشي يا بابا.

ومشيا سويا، وقالت زهرة:

ـــ ده انا هاحكيلك، وهاحكي لأخواتي، حاجات كتير حصلت هنا.

ابتسم بابا ابراهيم، واغلق يده على يدها الصغيرة، ونظر الى الدار الخاوية خلفها كانه يقيّم ارضا جديدة.

— لا، انتي متقوليش حاجة. احنا هنبدأ من الاول.

مسك بيدها، ودخلا معا من البوابة التي لم يقفلها احد،

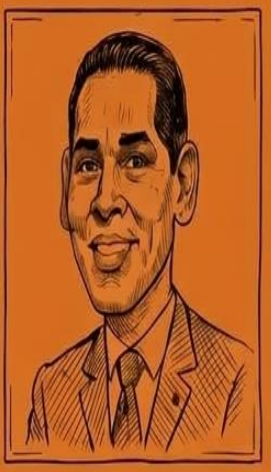
وتوتة توتة، بدأت الحدوتة.

في هذا العالم، لا تموت الأنظمة الاستبدادية بموت طغاتها

بل تُورث آلياتها لمن يديرونها بذات العقلية وبأقنعة جديدة

يرحل البابا مخلّفاً وراءه خراباً ومقابر،

ليدخل عبدون ويبدأ الحدوتة من جديد".



عن المؤلف:

محمد صبحي، كاتب ومحامٍ حقوقي مصري، عمل لسنوات طويلة في الدفاع عن الحريات العامة والحقوق الأساسية، وشارك في مبادرات وأبحاث متصلة بالعدالة الجنائية. مؤلف للعديد من المؤلفات تنوعت بين الفكر السياسي، والدراسات الحقوقية، والعمل الأدبي الساخر.

من أبرز مؤلفاته:

- **كتاب:** الشاهد على نظام يحتضر
- **رواية:** نقّاية الحرامية

عقيدة الجهل الواثق والعجز المتبادل